

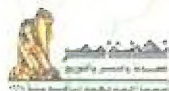
٥٧

سلسلة
التقويم
الإسلامية



سُبُهَاتُ حَوْلِ الْإِسْلَامِ

د / محمد عمارة



فَهْ التَّنْوِيرُ الْإِسْلَامِيُّ ٥٧

شُبُهَاتٌ خَوْلُ الْإِسْلَامِ

تأليف
د. محمد عذاق



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



اسم الكتاب: شبهات حول الإسلام
 اسم المؤلف: د. محمد عمارة
 إشراف عام: داليا محمد إبراهيم
 تاريخ النشر: يناير ٢٠٠٢
 رقم الإيداع: ١١٧٨٣ / ٢٠٠١
 الترخيم الدولي: I . S . B . N 977 - 14 - 1654 - 5
 الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
 المركز الرئيسي: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة
 مدينة السادس من أكتوبر
 ت: ٢٢٠٢٨٧ - ٢٢٠٢٨٩ / ٢٢٠٢٨٩ - ٢٢٠٢٨٩
 فاكس: ٢٢٠٢٩٦ / ٢٢٠٢٩٦
 email: nahda@gega.net
 مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة
 ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٥٩٠٨٨٩٥
 فاكس: ٥٩٠٣٣٩٥ / ٢
 ص.ب: ٩٦ الفجالة - القاهرة
 الإدارة العامة: ٢١ ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
 ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٣/٣٤٧٢٨٦٤
 فاكس: ٣/٣٤٦٢٥٧٦
 ص.ب: ٢٠ أمبابة

www.nahdetmisr.com

تقديم

هذه سبع شبهات ، طلب منى الإجابة عليها «مكتب القاهرة» لموقع «Islam On Line» على شبكة المعلومات العالمية «الإنترنت» . . . وهى شبهات بعث بها ، طلباً للإجابة عنها ، والكشف عن حقائقها «مجموعة من طلبة الدكتوراه العرب الدارسين فى بريطانيا . . . والذين التقوا بمجموعة من الشباب المسلمين ، من جنسيات عربية وأخرى آسيوية ، يتبنون «فكراً جديداً» هدفه «التجديد ومقاربة الدين الإسلامى بالعصر» ويقول أصحاب هذا الفكر : «إنهم لا ينتمون للعلمانية أو إلى أى تيار مثل تيار التغريب الذى انبهر أهله بتألق الحضارة الأوروبية» .

ويقول السائلون - طلبة الدكتوراه - عن أصحاب هذه الشبهات : «إن أكثرهم ، وخاصة الآسيويين منهم ، قد ولدوا ونشئوا فى بلاد الغرب ، ولا ينتمون لأوطانهم الأصلية لا من قريب ولا من بعيد . . .» .

ويعرّف السائلون بأنفسهم - فكراً - فيقولون : «وحيث إننا نعتبر أنفسنا من الداعين إلى التجديد ، على الطريق الذى يسير عليه كثير من رواد تجديد الفكر الإسلامى ، أمثال الدكتور محمد سليم العوا والدكتور محمد عمارة وغيرهم كثير والحمد لله ، هؤلاء

هم أساتذتنا الذين نفخر بهم ونجلهم ونعتبرهم قادتنا إلى المستقبل
المشرق بإذن الله .

إننا نؤمن بأن تجديد الفكر الإسلامى سنة من سنن الله ، وأنه
يجب أن يكون دائم الفعل على مر العصور ، وأن مبدأنا هو كما
يقول الدكتور محمد عمارة : «إن عقلانيتنا الإسلامية المتميزة قد
وازنت بين الحكمة وبين الشريعة ، وتأخى فيها العقل والنقل
لهداية الإنسان» .

وإذ نحن نكتب إليكم هذه الرسالة نطلب منكم النصح
والإرشاد ، آمليين من الله - تعالى - أن تستجيبوا لمساعدتنا وإبداء
الرأى حول هذا الفكر الجديد الذى جعلنا فى حيرة من أمرنا ..»

* * *

أما الشبهات السبع - التى وردت بالسؤال - فمنها ثلاث حول
لقرآن الكريم :

الأولى: فى التشكيك بحفظ الله للقرآن .

والثانية: حول تاريخية وتوقيت وتجاوز الواقع المنظور لأحكام
آيات القرآن .

الثالثة: حول الحروف والكلمات التى جاءت فوائج لبعض سور
القرآن الكريم - من مثل (ألم) و (خم) ..

ومن هذه الشبهات اثنتان حول رسول الله - ﷺ - :

الرابعة: حول عصمته .

الخامسة: حول الأحاديث النبوية .

والشبهة السادسة: حول موقف العقل من النقل .

أما السابعة: - والأخيرة - فهي حول البنوك ومعاملات النظام

المصرفي المعاصر ..

وكما أوردنا سؤال السائلين بنصه ، فإننا نورد كل شبهة

بنصها - كما جاءت في السؤال - ثم نتبع ذلك بالجواب .. الذي

حاولنا فيه الاحتكام إلى ما يميل للاحتجاج به والاحتكام إليه

أصحاب هذه الشبهات ..

وهذا منهاج في الحوار علمنا إياه رسول الله - ﷺ - عندما

قال : «أمرت أن أخطب الناس على قدر عقولهم .. وعلمنا إياه

أسلافنا - من البلاغيين - عندما عرفوا البلاغة بأنها مراعاة

مقتضى الحال ..

إن عظمة الإسلام تتجلى في سطوع حجته عن طريق مختلف

ألوان الاستدلال والحجاج .. فهو دين الفطرة الذي تشع أنواره على

الفطر الإنسانية السوية دائما وأبدا . وهو دين العقل الصريح ،

حتى لقد قال فلاسفته بإمكان وصول العقل الصريح إلى «شريعة

عقلية» موافقة لمقاصد الشريعة الإسلامية التي شرعها الله -

سبحانه وتعالى - وأوحى بها إلى رسوله - عليه الصلاة والسلام ..

والإسلام - كذلك - دين النقل ، الذي تميز بالحفظ والإعجاز . .
ثم هو الدين الذي تشهد آيات الكون المنظورة لآيات وحيه
المسطورة بين دفتي القرآن الكريم . .

وإذا كان واجب العلماء - الذي ورثهم إياه الأنبياء - هو تبليغ
الدعوة الإسلامية . . وإقامة الحجة على صدقها . . وإزالة الشبهات
المشارة من حولها . . فإننا نرجو أن تكون هذه الصفحات قياما
ببعض هذا الواجب . . وإسهاما في فريضة المراقبة على ثغور
الإسلام . .

والله نسأل أن يتفع بها . . وأن يتقبلها خالصة لوجهه الكريم . .
إنه - سبحانه وتعالى - أفضل مسئول وأكرم مجيب .

دكتور

محمد عمارة

الشبهة الأولى: حول حفظ القرآن الكريم

«... هم لا يؤمنون بأن القرآن قد حفظ ، كما تقول الآية الكريمة ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ويقولون : قد يكون الذكر جزءاً من القرآن ، وليس كله ، ويستدلون بكلام لعمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، بأنه أقسم على أن هناك آية في القرآن تتحدث عن الرجم - وهذه الآية غير موجودة - وأن غنمة أكلت ورقة من القرآن كانت بيد عائشة - رضى الله عنها - ...» .

الجواب:

وفي الجواب عن هذه الشبهة نساء:

لماذا بعث الله - سبحانه وتعالى - الرسل وأنزل الكتب؟

لقد كان ذلك رعاية من الله لخلقه .. ولطفاً بهم .. وحتى يكون حسابهم لهم - كي لا يتساوى المحسن والمسيء - وجزاءه إليهم على أفعالهم عدلاً إلهياً خالصاً .. ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾
فاطر : ٢٤ - ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ الإسراء : ١٥
- ﴿لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ النساء : ١٦٥ -
وقبل ختم النبوة والرسالة كانت مهمة حفظ كتب الرسالات

والشرائع موكولة إلى أم هذه الرسالات ، كجزء من التكليف لهم
والاختبار لاستقامتهم في هذا التكليف ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا
هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ
وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا
تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ
بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ المائدة : ٤٤ - . لكنهم
فرطوا في القيام بتكليف الحفظ للكتب - بالنسيان حيناً
وبالتحريف والإخفاء حيناً آخر - ﴿ فَبِمَا نَقْضُهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ
وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا
ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَرَالِ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ
وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٣) ومن الذين قالوا إِنَّا نَصَارَى
أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ
وَالْبُغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤)
يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون
من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين (١٥)
يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ المائدة : ١٣ - ١٦ .

وعندما كانوا يحرفون هذه الكتب ، أو ينسون بعضها ويحفظون البعض الآخر ، كان الله يبعث رسولا جديداً بكتاب جديد ..

أما عندما أراد الله - سبحانه وتعالى - مع بلوغ الإنسانية سن الرشد - ختم النبوات والرسالات بنبوة ورسالة محمد - ﷺ - فكان لابد لحفظ كتاب الشريعة الخاتمة من حافظ لا يجوز عليه الإهمال ، ولا يتأتى منه التحريف ، ولا يليق به النسيان .. أى كان لابد من الحفظ المعصوم الدائم للكتاب المعجز الخالد .. لأن ترك حفظ الكتاب الخاتم للبشر ، الذين يجوز عليهم الإهمال والتحريف والنسيان معناه طرؤ وحدث التحريف والضياح لهذا الكتاب ، حيث لا وحى سينأتى ولا رسول سيبعث ولا كتاب سينزل .. الأمر الذى لو حدث - افتراضاً - سيضل الناس ولا رعاية لهم ، ولا حجة عليهم ، تجعل من حسابهم وجزائهم عدلاً إلهياً مناسباً ..

ولذلك ، انتقلت مهمة حفظ الوحى الخاتم - القرآن الكريم - فى الرسالة الخاتمة ، إلى الله سبحانه وتعالى ، الذى لا يتخلف حفظه أبداً ، بعد أن كانت هذه المهمة فى الرسالات السابقة ، استحقاقاً من الله للناس ، أى طلباً منه لهم أن يحفظوا ما أنزل عليهم من الكتاب .. فكان الوعد الإلهى المؤكد ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر : ٩ - ..

ولذلك ، هيا الله لشدوين القرآن الكريم من كنية الوحي ما لم
 يتها لكتاب سابق .. وجعل جمعه وعداً إلهياً والمجازاً ربانياً ﴿ لا
 تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ (١٦) إن علينا جمعه وقرآنه ﴿١٧﴾ فإذا
 قرأناه فاتبع قرآنه ﴿١٨﴾ ثم إن علينا بيانه ﴿ القيامة ١٦ - ١٩ ..
 فكان الحفظ للقرآن - كل القرآن - وعداً إلهياً ، وإجازاً ربانياً ،
 وذلك حتى تستمر حجة الله على عباده ، ويكون حسابهم لهم عادلاً
 خالصاً .



ولم يقل أحد ، ولا جائز في العقل - فضلاً عن النقل - أن
 يقال : إن الذكر ، الذي تعهد الله بحفظه ، هو بعض القرآن ، وليس
 كل القرآن . لأن ضياع أى جزء من القرآن إنما يعنى تخلف رعاية
 الله لحلقه ، وسقوط حجته على عباده .. ثم إن القرآن لا يقف
 بالحفظ عندما يطلق عليه الذكر ، فضلاً عن أن مصطلح الذكر إنما
 يشمل كل القرآن .. تشهد على ذلك الآيات الكثيرة فى كتاب
 الله .. فالمراد بالذكر القرآن .. كل القرآن .. والكتاب .. كل
 الكتاب - وليس بعضه - بذليل قول الله - سبحانه - : ﴿ فاسألوا
 أهل الذكر ﴾ - الأنبياء : ٧ - أى أهل الكتب السابقة .. والله
 يشير إلى القرآن والتنزيل - أى كل ما نزل به الوحي - بلفظ الذكر

﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ -
الأعراف : ٦٩ . . . ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ
لَمَجْنُونٌ ﴾ - الحجر : ٦ - ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ نَسْبُحُ لِلنَّاسِ مَا
نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ - النحل : ٤٤ - ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ
أَنْزَلْنَاهُ أَفَاسْمَ لَهُ مُكْرَوْنَ ﴾ - الأنبياء : ٥٠ - ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ يس : ٦٩ - ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ
بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ - وما هو إلا
ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ - القلم : ٥١ - ٥٢ . والذكر هو كل ما جاء به
الوحي . فالوحي هو الذكر ﴿ فَاسْتَمْسَكَ بِالَّذِي أَوْحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ
عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١٠) وإنه لذكرٌ لك ولقومك وسوف تسألون ﴿
الزخرف : ٤٣ - ٤٤ - بل إن سياق آية إنا نحن نزلنا الذكر
شاهد على أن الذكر والقرآن والكتاب هو الوحي ﴿ أَلَمْ تَرَ تِلْكَ آيَاتِ
الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴾ ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴾
﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ ﴿ إِنْ أُنْزِلَ
نَزْلًا لِّلَّذِكْرِ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ - الحجر : ٩١ ، ٩٠ ، ٩١ .

ثم إن القرآن الكريم يؤكد أن الحفظ ، ونفي الشك والريبة إنما هو
لكل القرآن ولجميع التبريل . وليس لبعض القرآن ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ

لا ريب فيه هدى للمتقين ﴿١﴾ - البقرة : ٢ - ﴿٢﴾ تنزيل الكتاب لا ريب
 فيه من رب العالمين ﴿٣﴾ - السجدة : ٢ - ﴿٤﴾ ذلك بأن الله نزل
 الكتاب بالحق ﴿٥﴾ - البقرة : ١٧٦ - ﴿٦﴾ نزل عليك الكتاب بالحق
 مصدقا لما بين يديه ﴿٧﴾ - آل عمران : ٣ - ﴿٨﴾ إنا أنزلنا إليك
 الكتاب بالحق لنحكم بين الناس ﴿٩﴾ - النساء : ١٠٥ - ﴿١٠﴾ وأنزلنا
 إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا
 عليه ﴿١١﴾ - المائدة : ٤٨ - ﴿١٢﴾ فما فرطنا في الكتاب من شيء ﴿١٣﴾
 الأنعام : ٣٨ - . . ولو ضاع شيء من هذا الكتاب - أى القرآن
 والتنزيل - حدث التقريط الذي تنفيه هذه الآية ، ولا تفت حجة
 الله على البشر ﴿١٤﴾ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه وإنفوا عنكم
 ترحمون ﴿١٥﴾ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا
 وإن كنا عن دراستهم لعافلين ﴿١٦﴾ أو تقولوا لو أنا أنزل علينا
 الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى
 ورحمة ﴿١٧﴾ - الأنعام : ١٥٥ - ١٥٧ - . . فحجة الله على الناس -
 بعد ختم الوحي بالقرآن الكريم - تنتفى وتسقط إذا حدث جهل
 بشيء مما أنزل في الكتاب . . القرآن - ﴿١٨﴾ وما أهلكنا من قرية إلا
 ولها كتاب معلوم ﴿١٩﴾ - الحجر : ٤ - . . ولو أن القرآن ضاع منه
 شيء لخلق وعد الله بتنزيل تبیان كل شيء فيه ، لتتم شهادة

الرسول - ﷺ - على أمته ﷺ ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم
من أنفسهم وحننا بك شهيدا على هؤلاء وورثنا عليك الكتاب تبياناً
لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴿١٨٩﴾ - الدخان -
وختم النبوة والرسالة ، يعنى انتفاء بعث رسول جديد ، وبزول
كتاب جديد . . . وحتى تقوم حجة الله على عباده لابد من بقاء
القرآن كله محفوظاً ، ليكون فيما على الناس ، أى دائم القيام على
هدايتهم وإرشادهم ﴿١٩٠﴾ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم
يجعل له عوجاً (١) فيما يُبدر بأما شديداً من لدنه وبشر المؤمنين
الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ﴿٢٠١﴾ - الكهف -
وإذا كان الكتاب هو كل القرآن ، فلقد وعد الله - سبحانه -
بأن يحفظه ويورثه للدين اصطفاهم من عباده ، بعد أن أنزله على
المصطفى من رساله ، وجمعه وقراه ﷺ والذي أوحينا إليك من
الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه إن الله بعباده خير بصير
(٢٠١) ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عباده فمنهم ظالم لنفسه
ومنهم مُقْتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل
الكبير ﴿٢٠٢﴾ - قاطر : ٣١ - ٣٢ . .

ومن صفات القرآن - كل القرآن - أنه كتاب عزيز ، أي منيع ، محفوظ من العبث به وفيه . . وأنه تنفع عن الإبطال ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بأي حال من الأحوال ، إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز (١) لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . - فصلت : ٤١ ، ٤٢ - . . والذكر في هذه الآية هو كل الكتاب ، العزيز على أي عبث به وفيه . .

ومن صفات القرآن - كل القرآن - أنه كتاب على حكيم ، فوق تطاول المتطاولين ، بشرأ كانوا أو أرسمة ودهوراً ، إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون (٢) وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم . - الزخرف : ٣ ، ٤ - . .

ومن صفات القرآن - كل القرآن - أنه في كتاب مكنون ، أي مصون ومحفوظ عن اللعب والعبث والتحريف ، إنه لقرآن كريم (٣) في كتاب مكنون . - الواقعة : ٧٧ ، ٧٨ . .

ولقد صدق التاريخ على هذا الحفظ الإنهي لهذا القرآن المجيد . . ومن يقرأ تاريخ التوراة - حتى ذلك الذي كتبه علماء اليهودية - يعلم ما أصابها بعد سنوات من نزولها . . وكيف أعيدت كتابة أسفارها على النحو الذي صنعه «عزرا» - «عزيز» - وغيره من الأحرار ، في صورة مثيثة بالتحريف . . ومن يتأمل تناقضات

الأنجيل - حتى الشهيرة منها - والفروق الجوهرية بينها وبين غير الشهيرة - من مثل أنجيل «مخطوطات نجع حمادي» ، و«مخطوطات البحر الميت» و«النجيل برتانيا» يعلم ما أصاب الإنجيل بعد سنوات معدودة من بعثة المسيح ، عليه السلام . . لكن . . ها هو القرآن الكريم كما نزل به الروح الأمين على قلب الصادق الأمين ، لم يتغير فيه حرف ولا رسم ولا حركة ولا عُنَّة ولا مد - وقد مضى على نزوله أكثر من أربعة عشر قرناً ، مرت فيها أمته بأطوار من التراجع والاختطاط ، وفقدت فيها الذاكرة الإسلامية ملايين المخطوطات التي أبادتها عذرات الطغاة - واندثرت فيها مذاهب وفلسفات . . وظل القرآن الكريم عزيزاً مبيعاً محفوظاً بحفظ الله وخير الحافظين . . فالتاريخ - هو الآخر - قد عدا شاهداً على هذا الحفظ الإلهي لكل القرآن الكريم . .

فبرهان العقل - المتعلق بختم الرسالة . . وختم الوحي - يجعل حفظ القرآن - كل القرآن - لإقامة الحجة على الناس - ضرورة عقلية . .

وكذلك النقل المتكرر في القرآن - بلفظ القرآن . . والكتاب . . والنزيل . . والتذكير - شاهد هو الآخر على الحفظ الإلهي لكل حرف وكل كلمة وكل آية وكل سورة من هذا القرآن الكريم . . فهو وحى الله الخاتم . . تعهد - سبحانه وتعالى - بجمعه وقرانه

وحفظه ، حجة خالدة ، كى لا يكون للناس على الله حجة إذا ما
ضاع شيء من هذا التنزيل العزيز المنيع الحكيم ..



أما بعض الروايات التى يعهم منها البعض شكاً فى حفظ كل ما
نزل على رسول الله - ﷺ - من القرآن - فإن منطق العقل ، ومنهاج
البحث العلمى ، وقواعد نقد النصوص والمرويات ، التى اتفق عليها
العلماء والعقلاء ، من كل الحضارات والفلسفات ، والأساق الفكرية
كلها تؤكد على ضرورة الموازنة بين المتعارضين والمتناقضين من
الروايات .. والأخذ بالمصدر الأوثق عند تعدد الجمع بين المرويات ..
فإذا كان لدينا - على نحو ما قدمنا - شهادة العقل الصريح على أن
حفظ القرآن - كل القرآن - هو ضرورة عقلية ، نفتصيحها حقيقة ختم
النبوّة والرسلّة ، واكتمال الوحي .. وإذا كانت شهادة العقل الصريح
هذه مدعومة بنصوص آيات القرآن الكريم ، أى بالمصدر المعجز ،
فقطعى الدلالة والثبوت .. فهل يكون عقلاً من يترك شهادة العقل
الصريح ، والنقل المعجز الصحيح ، ويلتفت إلى رواية من الروايات
يعلم الله من رواها؟ ولماذا رواها؟

إن منطق البحث العلمى ، الذى أجمع عليه كل عقلاء الدنيا ،
فى التعامل مع النصوص ، قد حسم هذه القضية .. التى أرجو أن
تكون هذه الإجابة حاسمة للتشبهة المثارة حولها .. والله من وراء
القصد ، منه نلتصمى الهداية والحكمة والرشاد ..

الشبهة الثانية: حول تاريخية أحكام القرآن

«... وهم - بالنسبة للقرآن الكريم - يعتبرون أن القرآن غير صالح لكل زمان، وأنه وقتي، أي أنه جاء لوقت قد مضى، ولا يتلاءم مع العصر الحالي، وأنه يجب أن تتغير تفسيراته بما يناسب هذا الوقت، وعلى سبيل المثال:

- إرث المرأة، ﴿... للذكر مثل حظ الأنثيين...﴾، يقولون: إن هذه الآية قد جاءت لزمان معين، ويجب أن تتغير، بحيث يتساوى الرجل والمرأة في الإرث...
- وكذلك الأمر بالنسبة لشهادة المرأة، «حيث يطالبون بتساواة الرجل بالمرأة من حيث الشهادة» الخ.

الجواب:

أما القول بتاريخية - أو تاريخانية - ووقتيية أحكام القرآن الكريم... بمعنى «أنها غير صالحة لكل زمان»، فإن لنا عليها ملاحظات تسوقها في عدد من النقاط

أولها: أن هذه الدعوى ليست جديدة، ولقد سبق وتناها فلاسفة التنوير العربي الوضعي العلماني، بالنسبة للثبوت

والإنجيل . . فرأوا أن قصصها مجرد رموز ، بل ورأوا أن الدين
والدين إنما يمثل «مرحلة تاريخية» في عمر التطور الإنساني ،
مثلت مرحلة طفولة العقل البشري . ثم تلتها - على طريق النضج -
مرحلة «الميتافيزيقا» ، التي توارت هي الأخرى لحساب المرحلة
الوضعية ، التي لا ترى علماً إلا إذا كان نابعاً عن الواقع ، ولا ترى
سبيلاً للعلم والمعرفة إلا العقل والتجارب الحسية . . وما عدا ذلك -
من الدين وأحكام شرعية - فهي «إيمان» مثل مرحلة تاريخية على
درب التطور العقلي . ولم يعد صالحاً لعصر العلم الوضعي . اللهم
إلا لحكم العامة والسيطرة على نزعاتهم وغرائزهم!

هكذا بدأت وتبلورت نزعة «تاريخية وتاريخانية» النصوص
الدينية في فكر الشوبنغر الغربي العلماني والنهضة الأوروبية
الحديثة . .

وإذا كان هذا القول قد جاز ، ووجد له بعض المنبررات - في
الغرب - بالنسبة لكتب رسالات خاصة يقوم بعينهم - بني
إسرائيل - الذين جاءتهم اليهودية والمسيحية ، ونزلت لهم التوراة
والإنجيل . . ولزمان معين . . ويتفاصيل تشريعات - وخاصة في
التوراة - تجاوزها تطور الواقع . فإن دعوى تاريخية النص الديني لا
مكان لها ولا ضرورة نستدعيها بالنسبة للقرآن الكريم . .

ذلك أن القرآن هو كتاب الشريعة الخاتمة ، والرسالة التي ختمت

بها النبوات والرسالات ، فلو طبقنا عليه قاعدة تاريخية النصوص الدينية لحدث «فراغ» في المرجعية الدينية ، إذ لا رسالة بعد رسالة محمد - ﷺ - ولا وحى بعد القرآن . وإذا حدث هذا «الفراغ» في المرجعية والحجة الإلهية على الناس ، زالت حجة الله على العباد في الحساب والحزاء ، إذ سيقولون : يا ربنا ، لقد أنزلت علينا كتاباً نسخته المتطور ، فماذا كان علينا أن نطبق ، بعد أن تجاوز الواقع المتطور آيات وأحكام الكتاب الذى أنزلته لهدايتنا؟ .

وثانى هذه النقاط : أن التاريخية والتاريخانية - أى وقنية الأحكام - لا يقول بها أحد فى أحكام العبادات . وإنما يقول بها أصحابها فى آيات وأحكام المعاملات . وهم يخطئون إذا ظنوا أن هناك حاجة إليها فى أحكام المعاملات التى جاء بها القرآن الكريم . ذلك أن القرآن الكريم - فى المعاملات - قد وقف عند «فلسفة» و «كليات» و «قواعد» و «نظريات» التشريع ، أكثر مما فصل فى تشريع المعاملات . فهو قد فصل فى الأمور الثابتة ، التى لا تتغير بتغير الزمان والمكان ، مثل منظومة القيم والأخلاق ، والقواعد الشرعية التى تستنبط منها الأحكام التفصيلية ، والحدود المتعلقة بالحفاظ على المقاصد الكلية للشريعة . وترك تفصيل أحكام المعاملات لعلم الفقه ، الذى هو اجتهاد محكوم بنوات الشريعة الإلهية . وذلك حتى يظل هذا الفقه - فقه المعاملات - متطوراً دائماً وأبداً ، غير

الزمان والمكان ، ليؤكد تغير الواقع ومستجدات الأحداث ، في إطار
كليات الشريعة وقواعدها ومبادئها - التي تحفظ على أحكامه المتطورة
إسلاميتها ، دائما وأبداً - . .

وهذه «الصبغة الإسلامية» الفريدة ، التي جاءت بالنص الإلهي
الثابت - أي الشريعة ، التي هي وضع إلهي ثابت - تحفظ إسلامية
والهبة المرجعية والمصدر دائما وأبداً - . . سيما وكلت أمر المتغيرات
إلى الفقه المتجدد والمتطور - والفقه هو علم الفروع - . . هذه
«الصبغة الإسلامية» هي التي وازنت بين ثبات النص وتطور
التفسير البشري للنص الإلهي الثابت . . وجمعت بين ثبات
«الوضع الإلهي» وتطور «الاجتهاد الفقهي» . . أي جمعت بين
ثبات المرجعية والنص ، وبين تطور الاجتهاد الفقهي المواكب
لمتغيرات الواقع عبر الزمان والمكان .

وثالث هذه النقاط : تتعلق بالأمثلة التي سبقت ونساق من قبل
دعاة تاريخية وتاريخانية النصوص الدينية ، للتدليل على ضرورة
تطبيق هذه التاريخانية - في زعمهم - على أحكام القرآن الكريم
في المعاملات . .

ونحن عندما ننظر في هذه الأمثلة - وهي هنا : ميراث المرأة . .
وشهادتها - نزداد يقينا بخطأ دعوى تطبيق هذه التاريخانية على
القرآن الكريم ، وعلى الأحكام التشريعية الواردة فيه . . فليس

صحيحاً أن توريث المرأة في الإسلام قد جانب الإنصاف لها ، حتى يكون حكمه صالحاً للزمان الماضي دون الزمان المعاصر والمستقبل . . . قال أنثى - في الإسلام - لا تراث نصف الذكر دائماً وأبداً . . . والقرآن لم يقل يوصيكم الله في الوارثين للذكر مثل حظ الأنثيين . . . وإنما جعل ذلك في حالة بعينها هي حالة «الأولاد» ، وليس في مطلق وكل الوارثين ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَى﴾ - النساء : ١١ - أما عندما كان التقعيد عاماً للميراث فإن القرآن قد استخدم لفظاً عاماً هو لفظ «النصيب» لكل من الذكور والإناث على حد سواء ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ - النساء : ٧ - .

ومعايير التفاوت في أنصبة الميراث لا علاقة لها بالجنس . . . ذكورة أو أنوثة - على الإطلاق - عنى غير ما يحسب وبظن الكثيرون - إن لم يكن الأكثرون! - . . . وإنما معايير هذا التفاوت ثلاثة :

١ - درجة القرابة . . . فكلما كان الوارث أقرب إلى المورث زاد نصيبه في الميراث . . .

٢ - وموقع الجيل الوارث في تسلسل الأجيال - وتلك حكمة إلهية بالغة في فلسفة الإسلام للميراث - فكلما كان الوارث صغيراً ،

من جيل يستقبل الحياة وأعباءها ، وأمامه المسؤوليات المتنامية ،
كان نصيبه من الميراث أكثر . فابن المتوفى يرث أكثر من أب
المتوفى - وكلاهما ذكر - وبنت المتوفى ترث أكثر من أمه -
وكلاهما أنثى . - بل إن بنت المتوفى ترث أكثر من أبيه ! .

٣ - والعامل الثالث في تفاوت أنصبة الميراث هو العبد المالى الذى
يتحملة ويكلف به الوارث طبقاً للشريعة الإسلامية . فإذا
انقضت ونسأت درجة القرابة . - وموقع الجيل الوارث - مثل
مركز الأولاد - أولاد المورث - مع تفاوت العبد المالى بين الولد
الذكر - المكلف بإعالة زوجة وأسرة وأولاد - وبين البنت - التى
سيمولها هى وأولادها زوج ذكر - هنا يكون للذكر مثل حظ
الأنثيين . - وهو تقسيم ليس فيه أية شبهة لظلم الأنثى . - بل
ربما كان فيه تمييز وامتيار لها ، احتياطاً لاستضعافها .

وهذه الحقائق فى الميراث الإسلامية - التى يجهلها وينجاهلها دعاة
تاريخية آيات الميراث - هى التى جعلت المرأة - فى الجداول الإجمالية
لحالات الميراث الإسلامى - ت رث مثل الرجل ، أو أكثر من الرجل .
أو ترث ولا يرث الرجل فى أكثر من ثلاثين حالة من حالات الميراث
الإسلامى ، بينما هى ترث نصف ما يرث الذكر فى أربع حالات فقط ! .

ولم أراد أن يطلع على هذه الحقائق أن يرجع إلى كتابنا (هل
الإسلام هو الحل - لماذا وكيف؟) - فصل «التحرير الإسلامى

للمرأة» - طبعة دار الشروق - القاهرة - وعلى كتاب (ميراث المرأة وقضية المساواة) للدكتور صلاح الدين سلطان - سلسلة «فى التنوير الإسلامى» - طبعة دار نهضة مصر - القاهرة .

وكذلك الحال مع «شهادة المرأة» فى الأمور والميادين التى تفل فيها خبرة المرأة عن الرجل تكون شهادتها أقل من شهادته . وحتى لا تهتر شهادتها كلية فى هذه الميادين ، مسح الفيران بشهادتها ، على أن تدعم شهادة واحدة من بنات جنسها . تذكرها بما تنساه من وقائع الشهادة . أما الميادين التى تختص بالمرأة ، والتى تكون خبرتها فيها أكثر ، فإن شهادتها فيها تكون أعلى . وأحياناً ضعف شهادة الرجل . بل إن شهادتها تعتمد حيث لا تعتمد شهادة الرجل فى بعض هذه الميادين .

والذين يظنون أن آية سورة البقرة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَحْضِرَ مِنْهُ شَيْءٌ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْلِكَ فَليَمْلِكْ وَلِيٌّ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشَّاهِدَةِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ

أحدهما الأخرى ولا يأب الشهود إذا ما دعوا ولا تساموا أن
تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم
لِلشهادة وأدنى ألا تترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها
بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تايستم ولا يضار
كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم
الله والله بكل شيء عليم (٢٨١) وإن كنتم على سفر ولم تجدوا
كاتباً فمرهان مفوضة فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن
أمانته وليتق الله ربه ولا تكتبوا الشهادة ومن يكتسبها فإنه أثم قلبه
والله بما تعملون عليم ﴿٢٨٢﴾ . البقرة : ٢٨٢ ، ٢٨٣ . . .

الذين يظنون أن هذه الآية - ٢٨٣ - تجعل شهادة المرأة نصف
شهادة الرجل بإطلاق ، وفي كل الحالات مخطئون وواهمون . . .
فهذه الآية تتحدث عن دين خاص ، في وقت خاص ، يحتاج
إلى كاتب خاص ، وإملاء خاص ، وإشهاد خاص . . .

وهذه الآية - في نصها - استثناء ﴿ إلا أن تكون تجارة حاضرة
تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ﴾ .
ثم إنها تستثنى من هذه الحالة الخاصة الإشهاد على البيوع ،
فلا تقيدها بما قيدت به حالة هذا الدين الخاص . . .

ثم إنها تتحدث ، مخاطبة ، لمصاحب الدين ، الذي يريد أن يستوثق لدينه الخاص هذا بأعلى درجات الاستيقاق . ولا تخاطب الحاكم - القاضي - الذي له أن يحكم بالبينة واليمين ، بصرف النظر عن جنس الشاهد وعدد الشهود الذين تقوم بهم البينة . فللحاكم - القاضي - أن يحكم بشهادة رجلين . أو امرأتين . أو رجل وامرأة . أو رجل واحد . أو امرأة واحدة . طالما قامت البينة بهذه الشهادة .

ومن يرد الاستزادة من الفقه الإسلامى فى هذه القضية - التى يجهلها الكثيرون - فعليه أن يرجع إلى آراء شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م) وتلميذه العظيم ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١ هـ ١٢٦٢ - ١٣٥٠ م) فى كتابه (الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية) ص ١٠٣ ، ١٠٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م . . فقيه - وفق نص ابن تيمية - أن ما جاء عن شهادة المرأة فى آية سورة البقرة ، ليس حصراً لطرق الشهادة وطرق الحكم التى يحكم بها الحاكم ، وإنما ذكر لنوعين من البينات فى الطرق التى يحفظ بها الإنسان حقه . فالآية نصيحة لهم وتعليم وإرشاد لما يحفظون به حقوقهم ، وما تحفظ به الحقوق شئ وما يحكم به الحاكم شئ ، فإن طرق الحكم أوسع من الشاهدين والمرأتين . .

ولقد قال الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١ هـ ٧٨٠ - ٨٥٥ م) إن

شهادة الرجل تعدل شهادة امرأتين فيمَا هو أكثر خبرة فيه ، وأن شهادة المرأة تعدل شهادة رجلين فيمَا هي أكثر خبرة فيه من الرجل . . فالباب مفتوح أمام الخبرة ، التي هي معيار درجة الشهادة ، فإذا تخلفت خبرة الرجل في ميدان تراجع مستوى شهادته فيه . . وإذا تقدمت وزادت خبرة المرأة في ميدان ارتفع مستوى شهادتها فيه . . وليس هناك في الفقه الإسلامي تعميم وإطلاق في هذا الموضوع . إذ الشهادة سبيل للمينة التي يحكم الحاكم - القاضي - بناء عليها ، بصرف النظر عن جنس الشهود وعددهم . .

ولو فقه الداعون إلى تاريخية وتاريخية آيات الأحكام في القرآن حقيقة هذه الأحكام التي توهّموا الحاجة إلى تجاوزها - فقالوا بتاريخية ووقتية معاني بصورها القرآنية - لأدركوا أن وقوف النص القرآني عند كليات وفلسفات وقواعد ونظريات التشريع ، مع ترك تفاصيل التشريع لاجتهادات الفقهاء ، هو الذي جعل أحكام القرآن الكريم في المعاملات - فضلاً عن العبادات . . والقيم والأخلاق - صالحة لكل زمان ومكان ، فكانت شريعته آخر وخاتم الشرائع السماوية ، دونما حاجة إلى هذه «التاريخية» و«التاريخية» التي استعاروها من الفكر الغربي ، دونما إدراك لخصوصية النص الإسلامي ، وتبصر مسيرة الفقه الإسلامي والخصارة الإسلامية . . ولو أنهم فقهوا حقيقة الأمثلة التي توهّموها دواعي لهذه التاريخية - من مثل ميراث المرأة - وشهادتها - لكفونا مثونة هذا الجهد في كشف هذه الشبهات! . .

الشبهة الثالثة: حول حروف فواتح بعض السور القرآنية

«وهم يقولون: إن القرآن الكريم يحتوى على طلاسم لم تفسر، كما جاء في سورة البقرة (الم)، وغيرها بما ذكر في السور الأخرى. ويسألون: كيف لم يسأل الصحابة عن معاني هذه الحروف. وهم الذين عايشوا الرسول - ﷺ - يوماً بيوم، وسألوه عن أنفه الأكسياء! فكيف لم يسألوا عن هذه الرموز؟»

ويصلون بذلك إلى أن الصحابة، رضى الله عنهم، إما أنهم قد سألوا الرسول وأجابههم عن ذلك، ولم يصلنا ذلك الجواب في حديث من الأحاديث - التي فقدت (حسب اعتقادهم) - أو أنه لم تكن قد فُكَّت هذه الرموز أصلاً، وتلك مصيبة أكبر، حيث إن معنى ذلك إتيان القرآن بطلاسم لا معنى لها! اهـ.

الجواب:

هذه الحروف - من مثل: (الم) - و(حم) - و(الر) - و(المر) - و(ن) ... إلخ - والتي وقف أمامها المفسرون القدماء وفقات قد تبدو مشقة للبعض وغير مفيدة للبعض الآخر... تطرح قضية من قضايا التفسير للقرآن الكريم، نقول:

إن القرآن الكريم وحى إلهي ، متعدد في وجوه الإعجاز ، ففيه
 إعجاز في المقام ، وإعجاز في البلاغة ، وإعجاز في قبح
 الأسلوب ، الذي لا هو بالنثر ولا هو بالشعر ، وإنما هو قرآن . .
 وإعجاز في الإخبار بالغيب ، من أنباء الأولين والآخرين ، وبدء
 الخلق ، وأسرار الكون ، وعالم الآخرة . . وإعجاز في الإشارة إلى
 أخفائى العلمية والآيات الكونية التي ما كانت لتخطر على قلب
 بشر تلقاه أو مفسر فسر في عصر التنزيل . . وإعجاز في القدرة
 الدائمة - غير الزمان والمكان وأنواع أجناس الإنسان - على خلق
 الفرد السوى واختراع السوى والهداية إلى الصراط المستقيم ،
 وتحقيق سعادته الدنيا والآخرة .

وغير وجوه الإعجاز هذه - يظل الباب مفتوحاً أمام العقل المتدبر
 في أسرار القرآن لاكتشاف وجوه جديدة للإعجاز ، والإحلال على
 أسرار قرآنية لم يعرفها الأقدمون ، والاهتداء إلى عجائب - في هذا
 الكتاب الذي لا تنقضى عجائبه - لم يهتد إليها السابقون من
 المفسرين . .

فاكتشاف الجديد في أسرار وعجائب القرآن ، واهتداء المفسر
 المعاصر - والمستقبلي - إلى ما لم يحظ به علم المفسرين القدماء -
 من فيهم الصحابة - لا يقدح في القرآن الكريم ، وإنما هو الطبيعي
 مع هذا الكتاب المتنامية أوجه إعجازه ، والمتدفقة مستحبات

معانيه ، والمتواليه كنوز أسرارهِ مع مراحل نمو العقل الإنساني ،
وتراكم العلوم والمعارف المعينة على اكتشاف أسرار آياته ، واشتداد
عود الفكر المتدبر لأبعاد هذا القرآن الكريم .

فالحقائق الحديثة للعلم الطبيعي قد جعلتنا نعلم عن الآيات
القرآنية التي تحدثت عن أطوار نمو الأجنة في الأرحام عالم يعلمه
فقيه الأمة وحبرها ابن عباس (٣ق هـ - ٦٨هـ - ٦١٩ - ٦٨٧م)
والمفسرون القدماء . . فهل يصح أن نسأل : لماذا لم يسأل
الصحابة رسول الله - ﷺ - عن هذه الحقائق فيعرفوها عند ذلك
التاريخ ١٢ . ، لقد طلعت هذه الحقائق مكتوبة حتى كشف عنها تطور
العلم الطبيعي حديثاً ، فكانت سبباً لإيمان عدد من كبار العلماء
بالإسلام عندما وقفوا أمام قول الله ، سبحانه وتعالى ، في هذا
القرآن : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ (٢٢) ثم جعلناه
نطفة في قرار مكين (٢٣) . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة
فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر
فتبارك الله أحسن الخالقين ﴿ . المؤمنون : ١٢ - ١٤ . وكذلك الحال
مع الآيات التي تحدثت عن ظلمة أعماق المحيطات ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ
فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَفْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ
بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَحْمِلِ اللَّهُ لَهُ
تَوَارِقَهَا لَهُ مِنْ نُورِهِ ﴾ . النور : ٤٠ . . وعن تناقص الأكسجين

كلما ابتعدنا - صعوداً - عن القشرة الأرضية وعلاماتها ، وخرج صدور الصاعدين إلى فضاء السماء ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ - الأنعام : ١٢٥ - . . . وعن التحام الأرض بالسماء - (كانتا رتقا) - قبل الانفصال ﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففصلناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ﴾ - الأنبياء : ٣٠ - . . . وعن نزول الحديد من النيازك إلى الأرض - وقد ثبت أنه غريب عن مكوناتها - ﴿ وأزلنا الحديد فيه بأساً شديداً ومنافع للناس ﴾ - الحديد : ٢٥ - . . . وغير ذلك من التفسيرات الجديدة لأيات الإشارات العلمية والكونية في القرآن الكريم ، تلك التي ما كان يبدركها المفكرون القدماء - من فيهم الصحابة والتابعون - قبل إغارة المكتشفات العلمية الحديثة على فتح أبواب هذه التفسيرات - .

إذا ، فالطبيعي هو بقاء أبواب الأسرار القرآنية مفتوحة ومندقة بالحديد أمام العقل الإنساني . ولذلك ، فإن تصور ضرورة معرفة حيل الصحابة لكل أسرار القرآن وعجائزه هو الأمر الغريب - بل هو التصور الذي يقدر في القرآن الكريم - .

وانطلاقاً من هذه الحقيقة ، التى يعلمها أهل العلم بالقرآن ،
والتي تجسدت في نمو وتطور عطاء المفسرين للقرآن مع تطور مستوى
المعارف والعلوم المستخدمة في اكتشاف أسرار آيات الله المستورة
في كتابه الحكيم . أى استخدام المكتشفات الإنسانية لآيات الله
الكونية المنظورة في اكتشاف الجديد من أسرار آيات الله القرآنية
المستورة . . . انطلاقاً من هذه حقيقة ، لا يرى بأساً من فتح
أبواب جديدة لفهم . بل وأهمهم جديدة . للحروف والرموز التي
جاءت فوائح لبعض سور القرآن الكريم ، والتي لم تعد تفسيرات
القدماء لها مفضلة للعقل المسلم في العصر الذي تعيش فيه ،
والتي فوّض كثير من المفسرين إلى الله علم المراد منها .

بل إن في واقعنا الفكري الراهن «اجتهادات» باللغة الحديثة .
وأحياناً مدهشة . تقدم تفسيرات غير مسوفة لهذه الحروف والرموز
والكلمات . .

فهناك كتاب «التفسير العلمي لحروف أوائل السور في القرآن
الكريم» للدكتورة نجمة عبدالعزيز إسماعيل - طبعة القاهرة - مطابع
الأهرام سنة ١٩٩٠م . . وفيه رؤية لهذه الحروف باعتبارها رموزاً
صوتية ، تمثل المستوى الأول الذي بدأت به اللغة الإنسانية الأولى
- والمؤلفة ترى أن العربية قد كانت هي اللغة التي بدأت بها
الإنساعة البشرية الأولى آدم وزوجه وبنوه . وذلك قبل أن تختلف

الأم وتعدد اللغات . . وأن الكلمات العربية الكثيرة الموجودة هي مختلف اللغات العالمية ليست واقداً عربياً على هذه اللغات ، وإنما هي من بقايا اللغة العربية الأم في هذه اللغات . وهي قد أفردت لهذا المبحث رسالتها للدكتوراة - بالإنجليزية - بعنوان (العربية الكلاسيكية) . . كما ترى أن سائر اللغات - غير العربية - فيها أربع مستويات : مستوى الحرف - ومستوى الكلمة - ومستوى الجملة . . ومستوى المعنى . . وأن العربية - بسبب أنها قد مثلت بداية النطق الإنساني - قد احتفظت بمستوى خامس ، لا نظير له في اللغات الأخرى ، وهو مستوى الرمز الصوتي ، الذي بدأ به النطق الإنساني . فالصوت فيها رمز لمعنى - وليس فقط الحرف والكلمة والجملة . . وهي قد أفردت في كتابها (التفسير العلمي لحروف أوائل السور في القرآن) فصلاً لمعنى كل رمز من هذه الرموز الصوتية التي جاءت فوائج لبعض السور القرآنية ، ونهت على القرائن التي جعلت وتجعل لمعنى الرمز الصوتي علاقة وثيقة بآيات ومعاني وأغراض السورة التي افتتحت بهذا الرمز الصوتي . .

وفى هذا (الاجتهاد) - عند من يتفق مع صاحبه - فتح جديد ، يكشف عن دلالات جديدة لمعاني هذه الحروف والرموز . .

وإذا نحن انطلقنا من فكرة أولية اللغة العربية . ومن أن الكلمات العربية الموجودة في اللغات القديمة الأخرى هي من بقايا

العربية الأم ، فستجد «اجتهاداً» آخر - في كتاب (الهيروغليفية تفسر القرآن الكريم) - لسعد عبدالمطلب العدل - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩م - يقول إن هذه الرموز والكلمات لها في قاموس اللغة المصرية القديمة معاني مناسبة تماماً لواقعها في أوائل السور التي افتتحت بها ، وذات علاقة ببعض معاني آيات من تلك السور .

والأهم في هذا المقام - وبصرف النظر عن الاتفاق والاختلاف مع مثل هذه «الاجتهادات» - هو أن بقاء الباب مفتوحاً لاكتشاف المعاني الجديدة والأسرار غير المسبوقة لهذه الحروف والرموز هو الطبيعي . فالنقضي هو أن نظل أبواب الفهم والحق مفتوحة أمام العقل المسلم لاكتشاف الجديد والمزيد من كنوز القرآن وعجائبه وأسراره . . . والواجب على العقل المسلم - المعاصر . . . والمستقبلي - أن يعي ذلك ، ويؤمن به ، دون أن يكون ذلك قادحاً فيما قدم القدماء من تفسيرات ناسبت احتياجات مجتمعاتهم ، ومستويات العلوم والمعارف التي أتاحت لهم فاستخدموها في تلك التفسيرات -

فنحن أمام كتاب لا تنقضي عجائبه . . . ولا تنفذ مكتشفاته أسرار - . . . ولنا أمام نص قد طوت الأفهام - حتى ولو كانت أفهام الصحابة - كل أسرار ومعانيه ومرامي .

الشبهة الرابعة: حول عصمة الرسول ﷺ

«وهم لا يعترفون بأن الرسول معصوم عن الخطأ، ويقدسون الأدلة على ذلك سورة (عبس وتولى) وكذلك عندما حامل الرسول - ﷺ - زوجته، ونزلت الآية الكريمة التي تنهيه عن ذلك» اهـ

الجواب:

إن عصمة الرسول - ﷺ - وكذلك عصمة كل الرسل عليهم السلام، يجب أن نفهم في نطاق مكانة الرسول وسهمة الرسالة.. فالرسول: بشر يُوحى إليه.. أى أنه - مع بشريته - له خصوصية الاتصال بالسماء، بواسطة الوحي.. ولذلك، فإن هذه المهمة تقتضى صفات يصنعها الله على عبده فيمن يصطفيه، كي تكون هناك مناسبة بين هذه الصفات وبين هذه المكانة والأهم الخاصة بالوكلية إلى صاحبها..

والرسول مكلف بتبليغ الرسالة، والدعوة إليها، والاجتهاد في سبيل إقامتها وتطبيقها.. وأنه على الناس طاعة هي جزء من طاعة الله - سبحانه وتعالى - ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ النساء - ٥٩ -

﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ - آل عمران : ٣٢ - ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ - النساء : ٨٠ - ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ - آل عمران : ٣١ - ولذلك ، كانت عصمة الرسل فيما يبلغونه عن الله ضرورة من ضرورات صدقهم والثقة في هذا البلاغ الإلهي الذي اختيروا ليقوموا به بين الناس ، وبداية العقل - فضلاً عن النقل - حاكمة بأن مرسل الرسالة إذا لم ينحبر الرسول الذي يصفى الصدق على رسالته ، كان عاثاً ، وهو ما يستحيل على الله ، الذي يصطفى من الناس رسلاً يؤهلهم العصمة لإصغاء الثقة والصدق على البلاغ الإلهي والخبرة على الناس بصدق هذا الذي يبلغون . .

وفي التعبير عن إجماع الأمة على ضرورة العصمة للرسول فيما يبلغ عن الله ، يقول الإمام محمد غنيمه (١٢٦٦-١٢٢٣هـ - ١٨٤٩-١٩٠٥م) عن عصمة الرسل - كل الرسل - . . « ومن لوازم ذلك بالضرورة : وجوب الاعتقاد بعلو قدرتهم ، وصحة عقولهم ، وصدقهم في أقوالهم ، وأمانتهم في تبليغ ما عهد إليهم أن يبلغوه ، وعصمتهم من كل ما يشوه السيرة البشرية ، وسلامة أبدانهم مما تنبؤ عنه الأبصار وتنفّر منه الأدواق السليخة ، وأنهم منزّهون عما يقصاد شيئاً من هذه الصفات ، وأن أرواحهم معزّدة من إحلال الإلهي بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسقط عليها سقوطه

روحانية... إن من حكمة الصانع الحكيم - الذي أقام الإنسان على قاعدة الإرشاد والتعليم - أن يجعل من مراتب الأنفس البشرية مرتبة يُعدّل لها ، يحض فضله - بعض من بصطفية من خلقه ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، يبرهم بالطير السليمة ، ويطلع بأرواحهم من الكمال ما يلبثون معه للاستشراق بأنوار علمه - والأمانة على مكنون سره - نالوا انكشف لغيرهم انكشافه لهم لغاضت له عنه - أو ذهبت بعقله جلالاته وعظمته ، فيشرّفون على الغيب بإذنه ، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه ، ويكونون في مراتبهم العالوية على بسبب من الغائبين - نهاية الشاهد وبداية الغائب ، فهم في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها ، هم وفد الآخرة في لباس من ليس من سكانها - أما فيما عدا ذلك - (أى الاتصال بالسماء - والتبليغ عنها) - فهم بشر يعترِبهم ما يعترى سائر أفرادهم - يأكلون ويشربون وينامون ويسهون وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام ، ويمرضون وقتد إليهم أيدي الظلمة ، ويأثمهم الاضطهاد ، وقد يقتلون - (الأعمال الكاملة) ج ٣ ص ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤٢٠ .

٤٢١ - دراسة وتحقيق : د . محمد عبادة - طبعة القاهرة - دار الشروق - سنة ١٩٩٣ م .

فالعصمة - كالمعجزة - ضرورة من ضرورات صدق الرسالة ومن مقتضيات حكمة من أرسل الرسل - عليهم السلام - .

وإذا كان الرسول ، كمشر ، يجوز على جسده ما يجوز على
أجساد البشر . وإذا كان الرسول كمجتهد قد كان يمارس الاجتهاد
والشورى وأعمال العقل والفكر والاختيار بين البدائل في مناطق
وميادين الاجتهاد التي لم ينزل فيها وحى إلهي . فإنه معصوم في
مناطق وميادين التسليم عن الله - سبحانه وتعالى - لأنه لو جاز
عليه الخطأ أو السهو أو مجانبة الحق والصواب أو اختيار غير الأولى
في مناطق وميادين التسليم عن الله لنطرق الشك إلى صلب
الرسالة والوحى والسلاغ ، بل وإلى حكمة من اصطفاها وأرسله
ليكون حجة على الناس ، لذلك ، كانت العصمة صفة أصيلة
وشروطاً ضرورياً من شروط رسالة جميع الرسل ، عليهم السلام .
فالرسول ، في هذا النطاق - نطاق التسليم عن الله - ما ينطق عن
الهيوى (٢) إن هو إلا نوحى بوحى - النجم - ٣ ، ٤ - وبلاغه ما
هو بقول بشر ، ولذلك كانت طاعته فيه طاعة لله ، وبغير العصمة
لا يتأتى له هذا المقام . .

أما اجتهادات الرسول - ﷺ - فيما لا وحى فيه ، والتي هي
ثمرة لإعماله لعقله وقدراته وملكوته الشرية ، فلقد كانت تصادف
الصواب والأولى ، كما كان يجوز عليها غير ذلك . ومن هنا رأينا
كيف كان الصحابة - رضوان الله عليهم - في كثير من المواطن
وبإزاء كثير من مواقف وقرارات وأراء واجتهادات الرسول - ﷺ -

يسألونه - قبل الإدلاء بنسأهائهم في الرأي - هذا السؤال الذي
شاع في السنة والسيرة :

- «يا رسول الله ، أهو الوحي ؟ أم الرأي والمشورة ؟» .

فإن قال : إنه الوحي - كان منهم السمع والطاعة له ، لأن طاعته
هنا هي طاعة الله . وهم يسمعون الوجه لله حتى ولو خففت
الحكمة من هذا الأمر عن عقولهم . لأن علم الله - مصدر الوحي -
مطلق وكلي ومحيط ، بينما علمهم نسي قد تخفى عليه الحكمة
التي لا يعلمها إلا بالله . أما إن قال لهم الرسول - جواباً عن
سؤالهم - إنه الرأي والمشورة - فإنهم يجتهدون ، ويشيرون ،
ويصوبون . لأنه - ﷺ - هنا ليس معصوماً ، وإنما هو واحد من
المقدمين في الشورى والاجتهاد . ووقائع نزوله عن اجتهاده إلى
اجتهادات الصحابة كثيرة ومتناثرة في كتب السنة ومصادر السيرة
النبوية - في مكان القتال يوم غزوة بدر . وفي الموقف من
أسراها . وفي مكان القتال يوم موقعة أحد . وفي مصالحة بعض
الأحزاب يوم الخندق . إلخ . إلخ .

ولأن الرسول - ﷺ - قد أراد الله له أن يكون القدوة والأسوة
لدأمة . لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو
الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴿ الأحزاب : ٢١ ٠ ﴾ وحتى لا
يقتدى الناس باجتهاد نبوي لم يصادف الأولى ، كان نزول الوحي

لتصويب اجتهاداته التي لم تصادف الأولى ، بل وعتابه - أحياناً -
على بعض هذه الاجتهادات والاختيارات - من مثل : ﴿ عسى ﴾
وتولي (٦٦) أن حاءه الأعمى (٦٥) وما يدريك لعله يزكى (٦٦) أو
يذكر فتفعه الذكرى (٦٦) أما من استغنى (٦٧) فأتت له تصدى (٦٧)
وما عليك ألا يزكى (٦٧) وأما من حاءك يسعى (٦٨) وهو يحشى
(٦٩) فأتت عنه نلهي ﴿ عسى ١ - ١٠ - ومن مثل : ﴿ يا أيها
النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبغى مرضات أزواجك والله عفو رحيم
(١٠) قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم
الحكيم ﴿ التحريم ١ - ٢ - . . . ومن مثل : ﴿ ما كان لى أن
يكون له أسرى حتى يتجن في الأرض يريدون عرض الدنيا والله
يريد الآخرة والله عزيز حكيم (٦٧) لولا كتاب من الله سبق
نسكم فيما أحذرت عذاب عظيم ﴿ الانفال : ٦٧ ، ٦٨ . . .
وغيرها من مواضع التصويب الإلهي للاجتهادات النبوية فيما لم
يسبق فيه وحى ، وذلك حتى لا يتأسى الناس بهذه الاجتهادات
المخالفة للأولى . .

فالعصمة للرسول - ﷺ - فيما يبلغ عن الله شرط لازم لتحقيق
الصدق والثقة في البلاغ الإلهي ، وبدونها لا يكون هناك فارق
بين الرسول وغيره من الحكماء والمصلحين ، ومن ثم لا يكون

هناك فارق بين الوحي المعصوم والمعجز وبين الفلسفات والإبداعات البشرية التي يجوز عليها الخطأ والصواب . . فبدون المعصمة تصبح الرسالة والوحي والبلاغ قول بشر ، ينتمى هي ، بالمعصمة ، قول الله ، سبحانه وتعالى ، الذي بلغه وبينه المعصوم - عليه الصلاة والسلام - . . فعصمة المنبأ هي الشرط لعصمة النبأ . بل إنها ، أيضاً ، الشرط لتقوى العيث والقبول الحكمة لمن اصطفى الرسول وبعثه وأوحى إليه بهذا البلاغ .

الشبهة الخامسة: التشكيك في الأحاديث

«وهم يشككون في صحة الأحاديث ، ويظهرون التناقضات بينها ، ويذكرون الحديث الذي ينص على عدم زيارة المرأة للقبور ، والحديث الذي يقول (في معناه) إن الرسول - ﷺ - قال : إني قد أمرتكم بعدم زيارة القبور من قبل . والآن أسمح لكم بزيارة القبور - فيشيرون إلى ذلك بأنه تناقض - ويدللون على ذلك بأن الأئمة قد فقدت الكثير من الأحاديث النبوية عبر الزمان ، أو أن هذه الأحاديث قد حُرِفَت عن معانيها الصحيحة . . .» اهـ .

الجواب:

في بداية الجواب عن شبهة هؤلاء الذين يشككون في الأحاديث النبوية . . ننبه على مستوى جهل كل الذين يشيرون مثل هذه الشبهات حول الحديث النبوي الشريف . . ذلك أن التدرج والتطور في التشريع - الذي يمثل حديث النبي عن زيارة القبور ثم إباحتها . . هذا التدرج والتطور في التشريع لا علاقة له بالتناقض بأي وجه من الوجوه : أو أي حال من الأحوال . .

ثم إن التشكيك في بعض الأحاديث النبوية ، والقول بوجود تناقضات بين بعض هذه الأحاديث ، أو بينها وبين آيات قرآنية . .

بل والتشكيك في مجمل الأحاديث النبوية ، والدعوة إلى إهدار
السنة النبوية ، والاكتفاء بالقرآن الكريم . . إن هذه الدعوى قديمة
وجديدة ، بل ومتجددة . . وكما حذر رسول الله - ﷺ - من
الكذب عليه . . فلقد حذر من إنكار سنته ، ومن الخروج عليها .

ونحن بإزاء هذه الشبهة نواجه بلونين من الغلو :

أحدهما : يهدر كل السنة النبوية ، اكتفاء بالقرآن الكريم .
ويرى أن الإسلام هو القرآن وحده .

وثانيهما : يرى في كل المرويات المسبوبة لرسول - ﷺ - سنة
نبوية ، يكفر المتوقف فيها ، دونما فحص وبحث وتحريص لمستويات
« الرواية » و« الدراية » في هذه المرويات . . ودونما تمييز بين المتوقف وإزاء
الراوي وبين إنكار ما ثبت عن رسول الله - ﷺ - .

وبين هذين الغلوين يقف علماء السنة النبوية ، الذين وضعوا
علوم الضبط للرواية ، وحددوا مستويات المرويات ، بناء على
مستويات الثقة في الرواة . ثم لم يكتفوا . في فرز المرويات . بعلم
« الرواية » والجرح والتعديل للرجال . الرواة . وإنما اشترطوا سلامة
« الدراية » أيضاً لهذه المرويات التي رواها العبدول الضابطون عن
أمثالهم حتى رسول الله - ﷺ - أي أن هؤلاء العلماء بالسنة قد
اشترطوا « لقد المتن والنص والمضمون » بعد أن اشترطوا « نقد الرواية
والرواة » وذلك حتى يسلم المتن والمضمون من « الشذوذ والعلّة

القادحة» ، فلا يكون فيه تعارض حقيقى مع حديث هو أقوى منه سنداً ، وألصق منه بمقاصد الشريعة وعقائد الإسلام ، ومن باب أولى ألا يكون الأثر المروى متناقضاً تناقضاً حقيقياً مع محكم القرآن الكريم . .

ولو أننا طبقنا هذا المنهج العلمى المحكم ، الذى هو خلاصة علوم السنة النبوية ومصطلح الحديث ، لما كانت هناك هذه المشكلة - القديمة - المتجددة - . . ولكن المشكلة - مشكلة العلم - بأنواعه ودرجاته - إنما تأتى من الغفلة أو التغافل عن تطبيق قواعد هذا المنهج الذى أبدعته الأمة الإسلامية ، والذى سبقت به حضارتنا كل الحضارات فى ميدان «النقد الخارجى والداخلى للنصوص المرويات» . . وهذه الغفلة إنما تستجلى فى تركيز البعض على «الرواية» مع إهمال «الدراية» ، أو العكس . . وفى عدم تمييز البعض بين مستويات المرويات ، كأن يطلب من الأحاديث ظنية الثبوت ما هو من اختصاص النصوص قطعية الثبوت . . أو من مثل تحكيم «الهوى» أو «العقل غير الصريح» فى المرويات الصحيحة ، الخالية متونها ومضامينها من الشذوذ والعلّة القادحة .

وهناك ، أيضاً ، أفة الذين لا يميزون بين التوقف إزاء «الرواية» والرواة - وهم بشر غير معصومين - وفيهم وفى تعديلهم وقبول مروياتهم اختلف الفقهاء وعلماء الحديث والمحدثون - وبين التوقف

إزاء «السنة» التي تمت صحة روايتها ودرابنتها عن المعصوم ، صلى الله عليه وسلم . فتوقف العلماء المتخصصين - وليس الهواة أو المتطفلين - إزاء «الرواية والرواة» شئ ، ، والتوقف إزاء «السنة» التي صحت وسلمت من التلذذ والعلل القاذحة شئ ، آخر . . والأول حق من حقوق علماء هذا الفن . أما الثاني فهو تكذيب للمعصوم - صلى الله عليه وسلم - والعياذ بالله . .



أما الذين يقولون إننا لا حاجة لنا إلى السنة النبوية ، اكتفاءً بالبلاغ القرآني ، الذي لم يخلو من شئ ، ، فإننا نقول لهم ما قاله الأقدمون - من أسلافنا - للأقدمين - من أسلافهم - .

إن السنة النبوية هي البيان النبوي للبلاغ القرآني ، وهي التطبيق العملي لأبواب القرآنية ، التي أشارت إلى قرائن وعبادات وتكاليف وشعائر ومناسك ومعاملات الإسلام . . وهذا التطبيق العملي ، الذي حول القرآن إلى حياة معيشة ، ودولة وأمة ومجتمع ونظام وحضارة ، أي الذي «أقام الدين» ، قد بدأ بتطبيقات الرسول - ﷺ - للبلاغ القرآني ، ليس تطوعاً ولا تزيئاً من الرسول ، وإنما كان قياماً بفريضة إلهية نص عليها القرآن الكريم ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ نُبِّئِ النَّاسَ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُونَ ﴾ - النحل : ٤٤ . . . فالتطبيقات النبوية للقرآن - التي هي السنة العملية والبيان

القولى الشارح والمفسر والمفصل - هى ضرورة قرآنية ، وليست تزيداً
على القرآن الكريم . . هى مقتضيات قرآنية ، اقتضاها القرآن . .
ويستحيل أن نستغنى عنها بالقرآن .

وناسياً بالرسول - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ - آى عمران ٣٢ -
﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ - النساء ٥٩ - ﴿مَنْ يَطِيعِ
الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ - النساء ٨٠ - ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ
فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ - آى عمران ٣١ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُيَاغِرُونَكَ
إِنَّمَا يُيَاغِرُونَ اللَّهَ﴾ - النحل ١٠٠ - ناسياً بالرسول - ﴿يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أَرْوَاقَ
الْعُلَمَاءِ﴾ - آى آل عمران ١٠٧ - وهى جمل الصحابة ومن بعدهم - لهذه
العبادات والمعاملات . . فالسنة النبوية ، التى بدأ تدوينها فى العهد
النبوى ، والتى اكتملت تدوينها وتحديثها فى عصر التابعين
وتابعيهم ، ليست إلا التدوين للتطبيقات التى جسدتها البلاغ
القرآنى ديناً معيشاً فى العبادات والمعاملات . .

فالقرآن الكريم هو الذى تطلب السنة النبوية ، وليست هى بالأمر
الزائد الذى يغنى عنه ويستغنى عنه القرآن الكريم .

أما العلاقة الطبيعية بين البلاغ الإلهى - القرآن - وبين التطبيق
النبوى لهذا البلاغ الإلهى - السنة النبوية - فهى أشبه ما تكون

بالعلاقة بين «الدستور» وبين «القانون» فالدستور هو مصدر ومرجع القانون . . والقانون هو تفصيل وتطبيق الدستور ، ولا حجة ولا دستورية لقانون يخالف أو ينافي الدستور . . ولا غناء ولا اكتفاء بالدستور عن القانون . .

إن رسول الله - ﷺ - ليس مجرد مبلغ فقط ، فهو ليس «ساعى يريد» . . وإنما هو مبلغ ، وعين للسلاخ ، ومطبق له ، ومقيم للدين ، تحول القرآن على يديه إلى حياة عملية . . فن إلى سنة وطريقة يحيها المسلمون . .

وإذا كان بيان القرآن وتفسيره وتفصيله هو فريضة إسلامية ، دائمة وقائمة ، على الأمة إلى يوم الدين . . فإن هذه الفريضة قد أقامها - أول من أقامها - حامل السلاخ ، ومنجز البيان ، ومقيم الإسلام ، عليه الصلاة والسلام . .

والذين يتصورون أن الرسول - ﷺ - مجرد مبلغ - «ساعى يريد» - إنما يضعونه في صورة أدنى من صورتهم هم ، عندما ينكرون عليه البيان النبوي للسلاخ القرآني ، بينما يمارسون هم القيام بهذا البيان والتفسير والتطبيق للقرآن الكريم . . وهذا «مذهب» يستعبد المؤمن بالله منه ومن أهله ومن الشيطان الرجيم . .

الشبهة السادسة: حول علاقة العقل بالنقل

«وهم يعتقدون أن جميع علماء الأمة بدون استثناء غير مؤهلين . لأنهم اعتمدوا على النقل وليس التفكير . وأنه يجب التفكير في كل أمور الدين . الأصل قبل الفرع . والعاء كل الأساسيات الموجودة التي تعتبرها الأمة من المسلمات . والبحث من جديد عن الحقيقة ، معتمدين على العقل فقط . . . اهـ

الجواب:

إن القول بالاعتماد على العقل فقط - أي دون النقل ، الذي هو الوحي الإلهي . في بلاغه القرآني وبيانه السوي . . . واستخدام العقل وحده أداة لإعادة النظر في كل ما تعتبره الأمة من المسلمات . . هو قول يحتاج إلى ضبط . . وإلى تصويب . . ويمكن أن يتم ذلك من خلال إشارات إلى عدد من الحقائق :

أولها: أن مقام العقل في الإسلام هو مكان عال وقريب ، ولا نظير له في الشرائع السابقة على الشريعة الإسلامية الخاتمة . فالعقل في الإسلام هو مناط التكليف لكل فرائض وأحكام الإسلام . . أي شرط التدبير بدين الإسلام . .

وثانيها: أن النقل الإسلامي - وخاصة معجزته القرآنية - هو معجزة عقلية ، قد ارتضت العقل حكماً في فهمها وفي التصديق بها ، وفي التمييز بين المحكم والمتشابه في آياتها ، وأيضاً في تفسير هذه الآيات . . . فليس للقرآن كهنوت يحتكر تفسيره ، وإنما هو ثمرة لنظر عقول العلماء المفسرين . . . وعلى حين كانت معجزات الرسالات السابقة معجزات مادية ، تدهش العقول ، فتشلها عن التفكير والنقل ، جاءت معجزة الاسلام - القرآن الكريم - معجزة عقلية ، تستمر العقل متى ينقل ويتفكر ويتدبر ، وتحكم إليه باعتباره القاضي في تفسير آياتها . . . فكان النقل الإسلامي سبباً لتنمية العقلانية الإسلامية . . . وكان هذا التطور في طبيعة المعجزة متناسباً ومتسقاً مع مرحلة النضج التي بلغت الإنسانية ، ومع حتم السماء سلسلة الرسالات والوحي إلى الأنبياء والرسل وأمم الرسالات .

وثالثها: أن العقل - في الإسلام - هو سبيل الإيمان بوجود الله ووحديته وصفاته . . . لأن الإيمان بالله سابق على التصديق بالرسول وبالكتاب الذي جاء به الرسول ، لأنه شرط لهما ، ومقدم عليهما ، فالتصديق بالكتاب - النقل - متوقف على صدق الرسول الذي أتى به ، والتصديق بالرسول متوقف على وجود الإله الذي أرسل هذا الرسول وأوحى إليه . . . والعقل هو سبيل الإيمان بوجود

الله - سبحانه وتعالى - وذلك عن طريق تأمل وتدبر بديع نظام وانتظام المصنوعات الشاهدة على وجود الصانع المبدع لنظام وانتظام هذه المصنوعات . . فالعقل - في الإسلام - هو أداة الإيمان بخبر الدين - الألوهية - . . وبعبارة الإمام محمد عبده : « . . فأول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلي ، والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح ، فقد أقامك منه على سبيل الحجية ، وقاضاك إلى العقل . ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن إلى سطلته . . » - (الأعمال الكاملة) ج ٣ ص ٣٠١ . . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة - طبعة القاهرة - دار الشروق سنة ١٩٩٣ م .

وذلك على حين كان العقل غريباً ومستبعداً من سبل الإيمان في حقب الرسالات السابقة على الإسلام . . . حقب المعجزات المدهشة المعبول ، عندما كانت الإنسانية في مراحل الطفولة «خرافاً ضالة» ، تؤمن بما يُلقى إلى قلبها ، دون إعمال عقل ، لأن الإيمان لا يحتاج إلى إعمال عقل . . وفق عبارة الفديس والفيلسوف التصرائني «أنسيلم» (١٠٣٣-١١٠٩ م) .

ورابعتها: أن المقابلة بين «العقل» و«النقل» هي أثر من آثار الثنائيات المتناقضة التي تميزت بها المسيرة الفكرية للحضارة الغربية ، تلك التي عرفت لاهو تاكسيا - نقلاً - لا عقلاً ، فجاءت عقلايتها ، في عصر النهضة والتنوير الرضعي العلماني ، ثورة على النقل اللاعقلاني ونقضا

له . . أما في الإسلام ، والمسيرة الفكرية لخصارته وأمنته . . وخاصة في عصر الازدهار والإبداع - فإن الثقل لم يكن أبداً مقابلاً للعقل ، لأن المقابل للعقل هو الخنوع ، وليس النقل . . ولأن النقل الإسلامي - القرآن الكريم - هو مصدر العقلانية المؤمنة ، والساعت عليها ، والداعي لاستخدام العقل والتفكير والتدبر في آيات الله المنظورة والمنسوبة جميعاً . . وآيات القرآن التي تخص على العقل والتعقل تبلغ تسعة وأربعين آية . . والآيات التي تتحدث عن «اللب» - بمعنى عقل وجوهر الإنسان - هي ست عشرة آية . . كما يتحدث القرآن عن «التهي» - بمعنى العقل - في اثنين . . وعن الفكر والتفكير في ثمانية عشر موضعاً . . وعن الفقه والتفقه - بمعنى العقل والتعقل - في عشرين موضعاً . . وعن «التدبر» في أربع آيات . . وعن «الاعتبار» في سبع آيات . . وعن «الحكمة» في تسعة عشر آية . . وعن «القلب» - كأداة للفقه والعقل - في مائة واثنين وثلاثين موضعاً . . ناهيك عن آيات العلم والتعلم والعلماء التي تبلغ في القرآن أكثر من ثمانمائة آية . . فالتنقل الإسلامي - أي الشرع الإلهي - هو الداعي للتعقل والتدبر والتفقه والتعلم . . والعقل الإنساني هو أداة فقه الشرع ، وشرط ومناط التدبر بهذا الشرع الإلهي . . ولذلك ، لا أثر للشرع بدون العقل ، كما أنه لا غنى للعقل عن الشرع ، وخاصة فيما لا يستقل العقل بإدراكه من أمور الغيب وأحكام الدين .

ذلك أن العقل ، مهما بلغ من العظمة والتألق في الحكمة والإبداع ، هو ملكة من ملكات الإنسان ، وكل ملكات الإنسان - بالتحيرة التاريخية والمعاصرة - هي نسبية الإدراك والتفكير ، تجعل اليوم ما تعلمه غداً ، وما يقصر عنه عقل الواحد يبلغه عقل الآخر . . وإذا كانت مبادئ عالم الشهادة - النفس والكون - أي الدنيا - مفتوحة على مصاريحها أمام العقل وأمام التجربة - بالنسبة للإنسان - فإن هناك مبادئ ، وخاصة في معارف عالم الغيب - سبيل معرفتها النقل - أي الوحي - والوجدان - القلب والإلهام - فالهدايات التي يهتدي بها الإنسان هي «العقل» و«النقل» و«التجربة» و«الوجدان» . . وليست العقل وحده دون سواء .

وبتتبع الهدايات وسبل المعرفة الإنسانية ، مع تنوع مصادر المعرفة الإنسانية - البرحي وآيات الله المستطورة ، مع الكون وآيات الله المنظورة - تتكامل وتتوازن المعرفة الإنسانية - وهذه هي نظرية المعرفة الإسلامية - بينما يحتل توازن هذه المعرفة إذا هي وقفت - في المصادر - عند الكون وعالم الشهادة وحده - وفي الوسائل وإدراك المعرفة عند العقل وحده ، أو العقل والتجربة وحدهما ، دون النقل والوجدان . . ولقد عثر عن هذا التكامل والتوازن في نظرية المعرفة الإسلامية الامام محمد عبده (١٢٦٥-١٣٢٣هـ ١٨٤٩-١٩٠٥م) عندما تحدث - في تفسيره لآية «اهدنا الصراط المستقيم» - عن

سورة الفاتحة - عن «الهدايات الأربع» - العقل ، والنقل ، والتجربة ،
والوجدان . . . كما عبر عن التلازم الضروري بين العقل والنقل ،
لتكامل المعرفة الإسلامية ، عندما قال : «العقل هو ينبوع اليقين
في الإيمان بالله ، وعلمه وقدرته ، والتصديق بالرسالة ، أما النقل ،
فهو ينبوع فيما بعد ذلك من علم الغيب ، كأحوال الآخرة
والعبادات . . . والقرآن - وهو المعجر الحارق - دعا الإسلام الناس إلى
النظم فيه بعقولهم . . . فهو معجزة تحرّست على العقل ، وعرفته
انقاصاً فيها ، وأطلقت له حتى التطرّف في أنحائها ، ونشر ما انطوى
في أثنائها . . . وإذا قدرنا عقل البشر قدرة ، وجدنا غاية ما ينتهي
إليه كما له إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التي
تقع تحت الإدراك الإنساني . . . أما الوصول إلى كنه حقيقته فمما
لا تبلغه قوته . . . ومن أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشري
أن يصل إليه وحده . . . لهذا كان العقل محتاجاً إلى مُعين يستعين
به في وسائل السعادة في الدنيا والآخرة . . .» (الأعمال الكاملة)
ج ٢ ص ٣٢٥ ، ٣٧٩ ، ٣٩٧ . -

فالإسلام لا يعرف - على الإطلاق - هذه الثنائية المتنافضة بين
العقل والنقل . . . وصريح المعقول لا يمكن أن يتعارض مع صحيح
المتقول . . . ولقد عبر الإمام محمد عبده عن ما قد يتوهمه البعض
تعارضاً عندما صاغ حقيقة هذه القضية فقال : «لقد تقرّر بين

المسلمين أن الدين إن جاء بشيء قد يعلو على الفهم ، فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل . ٢٠ - (الأعمال الكاملة) ج ٣ ص ٢٥٧ - . فصارق بين ما يعلو على إدراك العقل ، من بعض أمور الدين ، وبين ما يستحيل في العقل - الذي يرى ويرأ منه الدين - .

ومن بين علماء الإسلام الذين عبروا - بصديق وعبقريه - عن تكامل العقل والنقل ، الحكمة والشرعة - حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (٤٥٠-٥٠٥ هـ / ١٠٥٨-١١١١ م) عندما قال : «إن أهل السنة قد تحققوا أن لا معادة بين الشرع النقول والحق المعقول . وعرفوا أن من ظن وجوب الجصول على التقليد واتباع الظواهر ، ما أتوا به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر . وأن من تغافل في تصرف العقل حتى صادفوا به قواطع الشرع ، ما أتوا به إلا من خست الصمائر . فميل أولئك إلى التفريط ، وميل هؤلاء ، إلى الإفراط . وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط . . . فمثال العقل : البصر السليم عن الآفات والأذواء ، ومثال القلب : الشمس المنتشرة الضياء ، فأخلق أن يكون طالب الاهداء المستغنى إذا استغنى بأحدهما عن الآخر في غمار الأغبياء ، فلا فرق بينه وبين العميان . فالعقل مع الشرع نور على نور . . » - (الاقتصاد في الاعتقاد) ص ٢ ، ٣ - طبعة مكتبة صبيح - القاهرة - .

وهذه العلاقة بين العقل والنقل - علاقة التكامل والتأخي - هي التي أكد عليها أبو الوليد ابن رشد (٥٢٠-٦٥٤هـ/ ١١٢٦-١١٩٨م) عندما قال: «... فإننا - معشر المسلمين - نعلم ، على القطع ، أنه لا يؤدي الظلم البرهاني إلى مخالفة ما ورد به الشرع ، فإن الحق لا يصاد بالحق ، بل يوافقه ويشهد له . . . فأحكامه هي صاحبة الشريعة ، والأخت الرضيعة . . . وهما المصصحتان بالطبع - المتحانتان بالجوهر والعريضة - . . . (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) ص ٣١ ، ٣٢ ، ٦٧ - دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة - طبعة دار المعارف - القاهرة - سنة ١٩٩٩م . .

فالياب مفتوح على مصراعيه أمام العقل في سائر ميادين عالم الشهادة . . وهو سبيل الفقه والفهم والتكليف في الشرع والدين . . لكن لابد من مؤازرة الشرع والنقل للعقل فيما لا يستقل العقل بإدراكه من أخبار عالم الغيب والحكم والعقل من وراء بعض أحكام العبادات في الدين . . وما قد يبدو من تعارض - عند البعض - أحياناً بين العقل والنقل ، فهو تعارض بين العقل وبين «ظاهر» النقل - وليس حقيقة معنى النقل . . أو صرجعه إلى تخلف «صحة» النقل . . أو تخلف «صراحة» العقل . . أو وجود ما يعلم على الفهم . لا ما يتعارض مع العقل . فالعقل مع الشرع - كما قال حجة الإسلام الغزالي - «نور على نور» . . وما الحديث

عن التعارض بينهما إلا أثر من آثار الغلو في أحدهما ، تفريظاً أو إقراطاً . .

وإذا كانت البداهة والخبرة البشرية - وحنى الحكمة الفلسفية - تقول : إن من مبادئ الدين والشرائع ما لا يستقل العقل بإدراك كنهه وحقيقة جوهره ، فكيف يجوز لعاقل أن يدعو إلى تحكيم العقل وحده في كل أساسيات الدين؟^١ لقد قال الفيلسوف الفقيه أبو الوليد ابن رشد - وهو الذي أحترم عقلانيته المتألفة الأوروبيون والمسلمون جميعاً - قال عن رأي الفلاسفة القدماء في مبادئ الشرائع التي لا يستقل العقل بإدراكها : «إن الحكماء من الفلاسفة ليس يجوز عندهم التكلم ولا الخذل في مبادئ الشرائع - مثل : هل الله تعالى موجود؟ وهل السعادة موجودة؟ وهل الفضائل موجودة؟ - وفاعل ذلك عندهم محتاج إلى الأدب الشديد ، ولذلك وجب قتل الزنادقة ، فيجب على كل إنسان أن يسلم بمبادئ الشرائع ، لأن مبادئها أمور إلهية تفوق العقول الإنسانية ، وكيفية وجودها هو أمر معجز عن إدراك العقول الإنسانية ، فلا بد أن يعترف بها مع جهل أسبابها . . » (تهافت التهافت) ص ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٥ - طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م . . .

فليس هناك عاقل يحكم العقل فيما لا يستقل العقل بإدراكه ، من مبادئ الشرائع والمعجزات ، وكنهه وجوهره وحقائق الغيبات

وليس هناك عاقل يعقل أو يتعاضل عن مكانة ودور العقل في
دين الإسلام .

وإدراك وظيفة العقل . . وميدان عمله . . وحدود قدراته ، هو لب
الاحترام للعقل ، وليس فيه انتقاص من سلطانه ، الذي تلقى في
دين الإسلام وفكر المسلمين . .

الشبهة السابعة: حول النظام المصرفي المعاصر

"وهم يقولون : إنه يجب تخليع النظام البنكي الغربي المسي على الربح ، أي أن البنوك الإسلامية ، وخاصة العقارية منها ، يجب أن تسم الفروض على أساس استرداد هذه الأموال مضافاً عليها نسبة تغطي التضخم الاقتصادي ونفقات تغطي خدمات البنك ونسبة ثابتة من الربح ، وبدون هذا الربح فإن هذه البنوك ستفشل ، يؤكدون على أن البنوك الإسلامية فاشلة ، وهي تعمل بنفس عمل البنوك الربوية . ولكن بمسمى آخر ، مثل الواجبة لو ما شابه ذلك ، وهذا يعتمد على البنوك الإسلامية: صفة الغش والتلاعب بصفة مطلقة" اهـ .

الجواب:

إن موقف الفقه الإسلامي المعاصر من المعاملات المصرفية السائنة في العالم الحديث والمعاصر ، قد اكتسب فيه العديد من الدراسات ، وصدرت حوله العديد من الفتاوى ، الفردية والجماعية ، وهو موقف لا يعمم اجل ولا الحرمة على سائر المعاملات المصرفية ، وإنما يميز بين ما هو حلال وما هو حرام في هذه المعاملات .

وأغلب الجدل الذي دار وينور في مساحة الفقه الإسلامي المعاصر قد انصب على الفوائد البنكية المحددة سلفاً ، التي تعطيها المصارف لأصحاب المدخرات ، والتي تأخذها من أصحاب الفروض .

ودون دخول في التفاصيل - التي مكانها الدراسات الفقهية المتخصصة - فيحسن - في هذا المقام - التذكير بأصل القضية ، للوصول فيها إلى كلمة سواء .

فاولاً ، إن هذا النظام المصرفي ، السائد الآن في العالم المعاصر ، هو نظام غربي ، نشأ مع النظام الرأسمالي الغربي ، في إطار الحضارة المسيحية الغربية . ولأن المسيحية - كالإسلام - تحرّم الربا - الذي هو في جوهره - مال يشعر مالا دون عمل - فلقد تحرّج المسيحيون الغربيون من إقامة المضاربة الربوية . مع أنها ضرورة من الضرورات الطبيعية بالنظام الرأسمالي - الذي هو في جوهره : تعظيم لرأس المال على حساب العمل - .

ولأن اليهود قد حرّفوا موقف اليهودية من الربا ، فجعلوه حراماً فيما بينهم خاصة ، وحلالاً مع غيرهم ، فلقد تقدموا هم فأقاموا المضاربة الربوية ، وعملوا بها ، واحرقوا صانعها ، وبيعوا فيها . وظلوا كذلك حتى سادت الفلسفة الوضعية العلمانية النفعية - « البرجماتية » - في المجتمعات الغربية ، فتراجعت حاكمية المعايير المسيحية ، ودخل المسيحيون الغربيون هذا الميدان مع اليهود ، وناقسوه فيهم . .

وثانياً : إن بلادنا الإسلامية ، وكل حضارات وأمم الختوب ، لم تعرف هذا النظام المصرفي الربوي إلا عندما جاءنا - مع النظام الرأسمالي - في ركاب الغزوة الاستعمارية الأوروبية الحديثة لبلادنا . ولذلك ، يجب التمييز بين قدم الممارسات الربوية ، عند التاريخ القديم والحضارات القديمة وبين هذا النظام المصرفي المعاصر ،

الذى نشأ - كنظام سائد وحاكم - مع سيادة الرأسمالية وتحكمها ،
والذى «تعولم» مع الغزوة الاستعمارية الأوروبية الحديثة .

وثالثاً: فبسبب من كون النظام المصرفي الريوى هو ثمرة من
ثمرات النظام الرأسمالى ، وضرورة من ضروراته ، ولازمة من
لوازمه - للاشتراك فى فلسفة تعظيم رأس المال على حساب
العمل - كان رفض الاقتصاد الاشتراكى والشيوعى لهذا النظام . .
لأن الفلسفة الاشتراكية تعظم العمل بدلاً من رأس المال - على
عكس الرأسمالية - ولذلك فهى تمنع الربا ، الذى هو : مال يثمر
ويجلب ما لا دون عمل .

ورابعاً: إن فلسفة الموقف الإسلامى من المال والنقد تلخص فى أنه
مقابل عمل أو سلعة أو خدمة أو منفعة ، وليس المال والنقد - فى ذاته -
سلعة تباع وتشترى . . وهذا هو لب الفلسفة الإسلامية التى تحرم
التجارة بالنقد ، وجعل المال يثمر ما لا بدون عمل . . وفى هذا الموقف
تتفق الفلسفة الاشتراكية مع فلسفة الإسلام فى النفود والأموال .

وخاصة: إن تركيز كل الجدل الفقهى الإسلامى المعاصر - إزاء
المعاملات المصرفية - على تحديد العائد من المدخرات أو عدم
تحديده ، هو ابتعاد عن جوهر القضية ، فقد يكون تحديد العائد
تنظيماً يفيد أصحاب المدخرات ، الذين هم الجانب الأضعف فى
المعادلة الادخارية ، ويحميهم من ظلم قائم أو محتمل من أرباب
المصارف ، الذين يمثلون الجانب الأقوى فى هذه المعادلة . . ومطلوب
من الفقه الإسلامى أن يركز على جوهر فلسفة الإسلام فى النفود
والأموال - أى أن تكون الأموال بدلاً لعمل ، وليست سلعة يتاجر

بها ، فتأتى بأموال - فوائده - دون عمل مصارف . . ولذلك ، فإن النظام المصرفى الإسلامى هو النظام الذى يقسم المصارف ، لا لتناحر فى المدخرات ، وإنما لتوظف هذه المدخرات وتشارك بها فى التنمية المجتمعية الشاملة مختلف الميادين . . فالمصارف الإنتاجية - أى التى تشارك بمدخراتها فى التنمية - هى المصارف الإسلامية الحقة ، حتى ولو لم تسم نفسها إسلامية . . والمصارف غير الإنتاجية ، التى تعمل فى إعادة اقراض مدخراتها ، وتعيش على الفروق بين عوائد الاقتراض والإقراض - بصرف النظر عن الأسماء التى تطلقها على هذه العمليات - هى مصارف غير إسلامية ، حتى ولو سميت نفسها إسلامية . .

وفى ضوء هذه الحقيقة نقرأ الفتوى الشهيرة للإمام محمد عبده (١٢٦٥-١٣٢٣هـ ١٨٤٩-١٩٥٠م) بحلّ عائد مدخرات «صناديق التوفير» ، لأن صناديق التوفير كانت مؤسسة حكومية ، تأخذ المدخرات لتبنى بها الحكومة مدارس ومصانع ومسنشفيات . . فكانت صورة من المصارف الإنتاجية ، ولم تكن صورة من مؤسسات التجارة بالنقود والأموال .

وسادساً: إن رؤية المأساة التى وصل إليها النظام الربوى المعاصر ، هى الكفيلة بتبيان عظمة العدل الإسلامى المتجسد فى فلسفة الإسلام إزاء النقود والأموال . . فالتضخم - الذى يمثل سرطان النظام المالى الرأسمالى العالمى - هو ثمرة من ثمرات جنون التجارة فى النقود والأموال . . والمضاربات المجنونة على أسعار الأسهم فى البورصات العالمية - وهى التى خربت وتخرّب الكثير

من التجارب التتموية ، ونهادر عرق الأمم وكساح الشعوب - هي واحدة من الثمرات الحرة للنظام الربوى ، والتجارة فى النقود والأموال . . وإذا علمنا أن ٩٧٪ من رأس المال المالى العالمى - أى ١٠٠ تريليون دولار - موزعة فى السمرة والمصارىات - أى فى الربا والتجارة فى النقود . . وأن ٣٪ فقط من رأس المال المالى العالمى - أى ٣,٥ تريليون دولار - هي الموزعة فى التجارة والصناعة والخدمات . . علمنا أن مأساة الرأسمالية المتوحشة ، ونظامها الربوى ، أشنع وأفظع من قضية تحديد العائد من المدخرات أو عدم تحديده ، تلك التي شغلت وتشغل أطراف الجدول المقهى حول الموقف الإسلامى من معاملات البنوك .

وسابعاً : إذا كان النظام الربوى ثمرة من الثمرات اللصيقة بالنظام الرأسمالى ، وجزء من فلسفة الرأسمالية إزاء النقود والأموال ورأس المال . . وإذا كان هذا النظام الرأسمالى - على تفاوت فى صور حدته ووحشيته . . هو السائد الآن فى كل أنحاء العالم . . فإننا يجب أن ننظر إلى النظام الربوى نظرتنا إلى «التلوث» الذى عم بلاؤه سائر أرجاء الكوكب الذى عليه نعيش ، فلقد أصبح روحاً سارية فى كل المعاملات . . ونحن بإزائه أمام ضرورة وبلاء عام ، كمثل التلوث الذى أصاب عموم البيئة فى عصرنا . . فالتعامل الإسلامى مع هذا الواقع هو التعامل مع الضرورات . . فواجب ألا نزيّف ديناً فنقول إن هذا النظام المصرفى الربوى حلال . . وفي ذات الوقت لا نعضّ عبثاً عن عناصر الضرورة فيه فنطلب من الناس الامتناع عن التعامل مع هذا الواقع

الحاكم لكل الاقتصاديات . . وهذا تأتى قواعد التعامل الإسلامى مع الضرورات ، التى تقدر بقدرها ، والنسب تعامل كضرورات يسعى الناس إلى الخروج من أسبابها وملاساتها وثمراتها ، وليس إلى تكريسها بالنزعم أنها هى الطبيعية والقاعدة والحلال . . وكذلك تأتى قاعدة تنزيل الحاجة الشديدة والماسة منزلة الضرورة . .

وهنا - أيضاً - تأتى أهمية البنوك الإسلامية ، التى وإن لم تستطع النجاة من « التلوث الربوى » السائد عالمياً إلا أن وجودها وأدائها تعلن إفرض لقبول وتأييد هذا النظام .

وثامناً : إن إدانة النظام المصرفى الربوى قرينة من قرينات الفقه الإسلامى المعاصر . . وإن بحث تراثها فى فلسفة الإسلام إزاء الأموال والنقد - ندما ما كتبه حجة الإسلام أبو حامد الغزالى (٤٥٠-٥٠٥هـ/ ١٠٥٨-١١١١م) فى كتاب (أحياء علوم الدين) عندما قال : فقد خلق الله الدنانير والدراهم حاكمين ومنسطين بين سائر الأموال ، حتى تقدر الأموال بهما . . خلقيهما لتتداولهما الأيدي . . وللتوسل بهما إلى سائر الأشياء . . ولا غرض فى أعبانها . . بل هما وسيلة إلى كل غرض . . وكل من عمل فيهما عملاً لا يليق بالحكم ، بل يخالف الغرض المقصود بالحكم ، فقد كفر لعنة الله فيهما . فمن كثرهما فقد ظلمهما ، وأبطل الحكمة فيهما . . وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والدنانير فقد كفر لعنة وظلم . لأنهما خلقا لغيرهما لا لنفسهما ، إذ لا غرض فى عينهما . . وأما من معه نقد ، فلو جاز له أن يبيعه بالنقد ، فيتخذ التعامل على النقد غاية عمله ، فيغنى النقد مقيداً عنده ، وينزل منزلة المكثور . . فلا معنى لبيع النقد بالنقد إلا اتخاذ النقد مقصوداً للادخار ، وهو ظلم . .

فكل ما خلق حكمة فلا ينبغي أن يصرف عنها» - ج ١٢ ص ٢٢٢٠ ،
٢٢٢١ - كتاب الصبر والشكر - طبعة دار الشعب - القاهرة - .

إن بعث هذا التراث - ضد العزالي وحتى الاجتهادات الحديثة
والمعاصرة - واجب من واجبات العقل المسلم المعاصر - لكن هذا
شيء ، ونحويل فلسفة الإسلام في الأموال إلى تودج قائم في أرض
الواقع شيء آخر - . وإن قيام عشرات - بل ومئات - البنوك
الإسلامية لم يغير واقع «التلوث الربوي» ، الذي هو جزء عضوي
من النظام الرأسمالي الحاكم للعالم بأسره ، وكما اضطرت
منظومة البلاد الاشتراكية - قبل انهيارها - إلى التعامل بالربا - في
المبادلات العالمية - رغم رفضها له وتورتها على فلسفته - . فستظل
البلاد الإسلامية - بما فيها البنوك الإسلامية - مضطرة لاستشاق
هذا «التلوث الربوي» ، حتى ولو أطلقت عليه أسماء أخرى ، .
وستبقى المفارقة المضحكة في موقف دعاة البنوك الإسلامية
الناصرين - في ذات الوقت - للنظام الرأسمالي ، دون إدراك أن
الرأسمالية هي الأب الشرعي للربا الذي يحاربون! - .

أما السبيل إلى الخروج من هذا «الجور المالي العالمي» ، فهو تحويل
العالم الإسلامي - بالتكامل الاقتصادي - . والسوق الاقتصادية
المشتركة - . والاعتماد المتبادل - إلى كتلة اقتصادية متحدة ،
وعندهذا يمكن لما أن نقول للآخرين - إن لنا فلسفة متميزة في النقود
والأموال يجب مراعاتها في التعامل معنا - . فالمطلوب أن نتجاوز ،
نحن المسلمين ، النظام الاقتصادي الذي أثمر ويشعر النظام المصرفي
الربوي ، وأن نكون من القوة بحيث يتعامل معنا الآخرون وفق

فلسفتنا في النقود والأموال ..

وإذا كان عقلاء الغرب يشكون من الكوارث الدورية للنظام الرأسمالي .. وإذا كان من هؤلاء العقلاء من يلتفت الآن إلى النظام الإسلامي اللاربوي .. فإن الوحدة الاقتصادية للعالم الإسلامي ، وتطبيق المسلمين لفلسفة إسلامهم في النقود والأموال ، سيلمح انظار العالم أكثر وأكثر إلى هذا النظام اللاربوي ..

نعم .. هو طريق شاق .. وطويل .. لكنه - وحده - هو الطريق .. طريق نهضة المسلمين بالإسلام وإبلاغ دعوته إلى العالمين ، وإزالة الشبهة عن هذه الدعوة ، وإقامة حجة الإسلام على العالمين ..

أما الاستسلام لطاغوت الرأسمالية المتوحشة ، والتسليم بالنظام المصرفي الرأسمالي ، الذي عولم «الثلوث الربوي» ، فهو يأس وقنوط من ظهور الإسلام على الدين كله ، ومن ظهور الحلول الإسلامية لمشكلات الإنسانية على غيرها من الحلول .. وهو يأس وقنوط لا يليقان بالمؤمنين! ..

أما التخندق الفكري حول تحديد أو عدم تحديد سعر العائد من مداخلات البنوك ، فهو أشبه ما يكون باحتضان ظل فرع الشجرة بحسيانه الشجرة وما فيها من فروع .. وهو وهم تتسنى أن يبرأ منه أهله ، إن شاء الله ..

المؤلفات

- ١ - الصحوة الإسلامية في عيون غربية . محمد عمارة
- ٢ - الغرب والإسلام . محمد عمارة
- ٣ - أبو حيان التوحيدي . محمد عمارة
- ٤ - دراسة قرآنية في فقه الشجدة الحصارى . سيد دسوقي
- ٥ - ابن رشد بين الغرب والإسلام . محمد عمارة
- ٦ - الانتماء الثقافي . محمد عمارة
- ٧ - نصير العالم . ريماء عبد العزيم
- ٨ - التعددية الرؤية الإسلامية والتحديات . محمد عمارة
- ٩ - صراع القيم بين الغرب والإسلام . محمد عمارة
- ١٠ - د . يوسف القرضاوي : المدرسة الفكرية والمشروع الفكري . محمد عمارة
- ١١ - تأملات في التفسير الحصارى للقرآن الكريم . سيد دسوقي
- ١٢ - عندما دخلت مصر في دين الله . محمد عمارة
- ١٣ - الحركات الإسلامية رؤية نقدية . محمد عمارة
- ١٤ - المنهاج العقلي . محمد عمارة
- ١٥ - النموذج الثقافي . محمد عمارة
- ١٦ - منهجية التغيير بين النظرية والتطبيق . صلاح الصاوي
- ١٧ - تجديد الدنيا بتجديد الدين . محمد عمارة
- ١٨ - الشواهد والمتغيرات في السقطة الإسلامية الحديثة . محمد عمارة
- ١٩ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم . محمد عمارة
- ٢٠ - التقدم والإصلاح بالتثوير الغربي . محمد عمارة
- ٢١ - فكر حركة الامتارة . . وتألفاته . عبد الوهاب المسيري

٢٢ - حرية التعبير في الغرب من سلمان
رشدى إلى روجية جارودى .

٢٣ - إسلامية الصراع حول القدس وفلسطين .

٢٤ - الحضارات العالمية تدافع؟ أم صراع؟

٢٥ - التنمية الاجتماعية بالغرب؟ أم بالإسلام؟

٢٦ - الحملة الفرنسية فى الميزان .

٢٧ - الإسلام فى عيون غربية ..

دراسات سويسرية

٢٨ - الأقليات الدينية والقومية تنوع

ووحدة .. أم تفتيت واحتراق .

٢٩ - ميراث المرأة وقضية المساواة .

٣٠ - نفقة المرأة وقضية المساواة .

٣١ - الدين والتراث والحداثة والتنمية والحرية

٣٢ - مخاطر العولمة على الهوية الثقافية

٣٣ - الغناء والموسيقى خلال أم حرام؟؟

٣٤ - صورة العرب فى أمريكا .

٣٥ - هل المسلمون أمة واحدة؟؟

٣٦ - السنة والبدعة .

٣٧ - الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان .

٣٨ - قضية المرأة بين التحرير والتمركز حول الأنثى .

٣٩ - مركبة الإسلام .

٤٠ - الإسلام كما تؤمن به .. ضوابط وملاحم .

٤١ - صورة الإسلام فى التراث الغربى .

٤٢ - تحليل الواقع بمنهج العاهات الزمته .

٤٣ - القدس بين اليهودية والإسلام .

٤٤ - مأزق المسيحية والعلمانية فى أوروبا

(شهادة ألمانية)

د . شريف عبد العظيم

د . محمد عمارة

د . محمد عمارة

د . عادل حسين

د . محمد عمارة

ترجمة ا . ثابت عيد

د . محمد عمارة

د . صلاح الدين سلطان

د . صلاح الدين سلطان

د . محمد خبائى

د . محمد عمارة

د . محمد عمارة

ترجمة وتعليق ا . ثابت عيد

د . محمد عمارة

تقديم وتحقيق د . محمد عمارة

تقديم وتحقيق د . محمد عمارة

د . عيد الوهاب المسيرى

ا . منصور أبو شافعى

د . يوسف القرضاوى

ترجمة ا . ثابت عيد

د . محمد عمارة

د . محمد عمارة

تقديم وتعليق د . محمد عمارة

- ٤٥ - الآثار التربوية للعبادات في الروح والأخلاق .
 ٤٦ - الآثار التربوية للعبادات في العقل والجسد .
 ٤٧ - السنة النبوية والمعرفة الإنسانية
 ٤٨ - نظرات خضارية في القصص القرآني
 ٤٩ - الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين
 ٥٠ - الإعلان الإسلامي لحقوق الإنسان
 ٥١ - عن القرآن الكريم
 ٥٢ - في فقه الأقليات المسلمة
 ٥٣ - مستقبلنا بين العالمية الإسلامية والعملة الغربية
 ٥٤ - مركبة التاريخ
 ٥٥ - نقل الأعضاء في ضوء الشريعة والقانون
 ٥٦ - السنة التشريعية وغير التشريعية
 ٥٧ - شبهات حول الإسلام
- د . صلاح الدين سلطان
 د . صلاح الدين سلطان
 د . محمد عمارة
 د . سيد دسوقي حسن
 د . محمد عمارة
 تقديم / د . محمد سليم لعوا
 الشيخ / أمين الخولي
 د . طه جابر العلواني
 د . محمد عمارة
 / منصور أبو شافعي
 مستشار / طارق البشري
 د . محمد عمارة

الفهرس

٣ تقديم

٧ الشبهة الأولى: حول حفظ القرآن الكريم .

١٧ الشبهة الثانية: حول تاريخية أحكام القرآن .

٢٧ الشبهة الثالثة: حول حروف فوائح بعض السور القرآنية .

٣٤ الشبهة الرابعة: حول عصمة الرسول ﷺ .

٤١ الشبهة الخامسة: التشكيك في الأحاديث .

٤٧ الشبهة السادسة: حول علاقة العقل بالنقل .

٥٧ الشبهة السابعة: حول النظام المصرفي المعاصر .



إلى القارئ العزيز

في هذه السلسلة الجديدة :

إذا كان «التنوير الغربي» هو تنوير علماني، يستبدل العقل بالدين،
ويقسم قطيعة مع التراث ..

فإن «التنوير الإسلامي» هو تنوير إلهي، لأن الله والقرآن والرسول
صلى الله عليه وسلم : أنوار، تصنع للمسلم تنويراً إسلامياً متميزاً.
ولتقديم هذا التنوير الإسلامي للقراء، **تصدر هذه السلسلة**، التي
يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامي المعاصر :

- د. محمد عمارة ● المنتشار طارق البشري
- د. حسن الشافعي ● د. محمد سليم العوا
- أ. فهمي هويدي ● د. جمال الدين عطية
- د. سيد دسوقي ● د. كمال الدين إمام

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين ..

إنه مشروع طموح، لإتارة العقل بأنوار الإسلام.

الناشر

